

نمط حياة شبه الاستقرار في منطقة التيسية ، منطقة
حائل الإدارية : دراسة في الجغرافيا الاقتصادية عن التغير في
استغلال الموارد ونظام الترحل في وظيفة الرعي البدوي
محمد عبدالكريم علي حبيب

قسم الجغرافيا - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز

المستخلص . مرت وظيفة الرعي البدوي منذ بداية هذا القرن بتغيرات أدت إلى اختلافها جذريا عن الشكل التقليدي لها . حدثت هذه التغيرات كنتيجة للتحويلات الاقتصادية والاجتماعية في الدول التي تعيش فيها جماعات بدوية . وجاءت هذه التحويلات في حالة المملكة العربية السعودية كنتيجة لظهور دولة مركزية ولاكتشاف النفط . وأثر هذان العاملان بطرق مباشرة وغير مباشرة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجماعات البدوية بشكل عام . وأدت فترات الجذب مع بداية فترة الخمسينيات على تعزيز فعالية هذين العاملين مما أدى إلى التسريع في عملية التغير لدى هذه الجماعات بسبب دفعها للكثير منهم إما للاستقرار نهائيا أو الالتحاق بوظائف مؤقتة خارج نطاق اقتصاد الرعي البدوي . وقد ترتب على هذا الأمر الأخير تغيرات أخرى ساهمت في تحول الكثير من البدو إلى نمط حياة شبه الاستقرار .

قام الباحث بالتركيز على تحليل أسباب التحول إلى نمط حياة شبه الاستقرار والمراحل التي مر بها هذا التحول ومظاهر هذا التحول ونتائجه . وتم هذا التحليل على مستوى المملكة العربية السعودية بشكل

عام وعلى مستوى منطقة التيسية في منطقة حائل الإدارية بشكل خاص .
 وتم استعراض الأساس البيئي والبشري لوظيفة الرعي البدوي كإطار لهذا
 التحليل . كما وظف الباحث هذا الأساس لأجل التعرف على عوامل
 نجاح هذه الوظيفة قديما وعلاقته بنمط حياة شبه الاستقرار حاليا . وتم في
 الختام دراسة ما ترتب على ظهور هذا النمط من نتائج اقتصادية وبيئية
 واجتماعية في منطقة الدراسة .

مقدمة

تسم وظيفة الرعي البدوي كما تمارس الآن باختلافها الكبير عن الشكل التقليدي
 الذي كانت عليه في مستهل القرن العشرين . ويعزى هذا الاختلاف إلى حدوث
 تغيرات في هذه الوظيفة تسببت فيها التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها
 الدول التي تقطنها جماعات تمارس وظيفة الرعي البدوي . وقد تباينت التغيرات التي
 حدثت في هذه الوظيفة وذلك من جماعة بدوية لأخرى حتى داخل الدولة الواحدة .
 ويعكس هذا التباين وجود اختلاف في الظروف العامة بين الدول التي تحتوي على
 جماعات بدوية وكذلك لوجود اختلاف في وجهة النظر الخاصة بكل جماعة بدوية فيما
 يختص بالمفاضلة بين الرغبة في الاستفادة من الموارد الرعوية المتاحة وبين الاستفادة من
 مزايا القرب من مناطق الخدمات وذلك كما سيتضح فيما بعد .

موضوع الدراسة وأهدافها

يسعى الباحث في هذه الدراسة إلى وصف وتحليل نمط حياة شبه الاستقرار في
 المملكة العربية السعودية بشكل عام وفي منطقة التيسية من منطقة حائل الإدارية بشكل
 خاص . ويتطلب هذا المسعى في البداية ضرورة التفصي عن طبيعة التحولات
 الاقتصادية والاجتماعية التي طرأت مع مطلع القرن العشرين والتي أدت إلى إحداث
 تغير في وظيفة الرعي البدوي ضمن الجماعات التي استمرت في مزاولة هذه المهنة .
 ويعني هذا أن قضية توطن البدو والمشاريع الحكومية المخصصة للتوطن لن تناقش بسبب
 اختلاف أهدافها ومجالها عن أبعاد هذه الدراسة . ولا يعني هذا عدم مناقشة الدور
 الحكومي ، وهو دور حيوي - كما سنرى - في إحداث تغيرات في وظيفة الرعي

البدوي . وسيخصص الجزء الأكبر من هذه الدراسة لمناقشة أبعاد وأنواع التغيرات التي حدثت كنتيجة لهذه التحولات في وظيفة الرعي البدوي . وسيركز الباحث هنا على دراسة التغيرات التي حدثت في عناصر وأهداف وظيفة الرعي البدوي وطريقة ممارستها حالياً وخصوصاً ما يتعلق بنظام الترحل وأساليب استخدام الموارد . وستتم دراسة التعديلات ذات البعد المكاني التي حدثت في أنماط الحياة الاجتماعية والسلوكية لدى المجتمعات التي تمارس وظيفة الرعي البدوي .

منهج الدراسة

يقع الإطار العام لهذه الدراسة ضمن موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة . ويعالج الباحث هذا الموضوع من زاوية التغيرات التي حدثت في كيفية استخدام الإنسان للموارد البيئية في منطقة جافة . ولأن هذه التغيرات جاءت نتيجة لظروف خارجية ذات علاقة بالمجتمع الكبير الذي تعيش بينه الجماعات التي تمارس وظيفة الرعي البدوي لذلك يرى الباحث ضرورة دراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في هذا المجتمع وأدت بالتالي إلى تغير في وظيفة الرعي البدوي .

ولتحقيق هذا سيعتمد الباحث إلى استعراض الأدبيات المختصة بدراسة وظيفة الرعي البدوي وذلك لإعطاء فكرة عن النموذج التقليدي لهذه الوظيفة بشكل عام قبل أن تحدث بها التغيرات الحديثة . وسيتم بعد هذا تقديم فكرة عامة عن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت على مستوى المملكة العربية السعودية والتي أدت إلى اختفاء هذا النموذج . وسيعتمد الباحث في هذه المرحلة من الدراسة على أسلوب التقصي التاريخي وذلك للتمكن من إعطاء دراسة مستفيضة عن عوامل ظهور هذا النمط والمراحل التي تم بموجبها هذا الظهور في منطقة الدراسة .

أما فيما يختص بدراسة المظاهر الاقتصادية والاجتماعية لنمط حياة شبه الاستقرار الذي يسود في منطقة الدراسة فقد اعتمد الباحث على الدراسة الميدانية القائمة على الملاحظة وإجراء المقابلات الشخصية المتعمقة مع عينة من رؤوس الأسر البدوية في منطقة الدراسة . ولقد استخدم الباحث أسلوب المسح الاجتماعي للحصول على

البيانات الأساسية الخاصة بأساليب الرعي وحجم القطعان وكذلك عن الخصائص الاقتصادية والاجتماعية لعينة الدراسة سابقاً وحالياً . ولقد قام الباحث بإجراء المقابلات وتعبئة نماذج الاستبانات مباشرة مع عينة الدراسة . وسيتم في هذا الصدد اتخاذ الأسرة البدوية كوحدة للتحليل . وسيتم التعامل مع وحدة التحليل هذه بشكل أساسي كوحدة إنتاجية ضمن الإطار المكاني لمنطقة التيسية .

تتميز منطقة الدراسة بصلاحياتها مثل هذه الدراسة وذلك بسبب سيادة وظيفة الرعي البدوي فيها ونسب عزلتها النسبية والتي جعلت منها نموذجاً جيداً لمجتمعات البداوة الرعوية في المنطقة الشمالية من المملكة العربية السعودية .

الدراسة الميدانية

يستند هذا البحث على دراستين حقليتين لبادية منطقة حائل الإدارية قام بهما الباحث في فترتين مختلفتين من عام ١٤١٥ - ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م . وقد تمكن الباحث من القيام بالدراستين من خلال مشروع الدعم البيئي للبادية (١) الذي مولته وأشرفت عليه مصلحة الأرصاد وحماية البيئة التابعة لوزارة الدفاع والطيران بالمملكة العربية السعودية .

(١) تكونت الدراسة الأولى من مسح حقلي لأجزاء عدة من منطقة حائل جرى خلال شهر يناير ١٩٩٥ . وقام الباحث بهذا المسح ضمن فريق عمل من المصلحة . وقد اشتمل هذا المسح على أجزاء عدة من المنطقة تضمنت بعض مناطق النفوذ الرملية . وقد اعتمد هذا المسح الحقلي على إجراء مقابلات مع رؤوس بعض الأسر البدوية بهدف التعرف على الظروف العامة لنشاطهم الاقتصادي ونوع التغيرات التي طرأت على هذا النشاط . وظهرت نتائج هذا المسح في تقرير غير منشور شارك فيه الباحث بنصيب بسيط في الجزء الخاص ببادية منطقة حائل الإدارية فقط (٢) .

(٢) قام الباحث بدراسته الحقلية الثانية لمنطقة حائل وذلك ضمن نفس المشروع المذكور أعلاه خلال صيف عام ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م . وقد اقتصر العمل الحقلي للباحث في هذه المرة على الجزء الأقصى من شرق منطقة حائل . ويقع هذا الجزء ضمن حدود مركز الزبيرة الإداري والذي يشتمل على النصف الشمالي من هضبة التيسية والعروق الرملية الواقعة إلى الغرب من الهضبة . كما يشتمل على المنخفض الموازي

لهضبة التيسية من الغرب والذي يفصل بينها وبين العروق الرملية . واعتمد العمل الحقلية في هذه الدراسة على استخدام نماذج من استبيان طرحت أسئلته على عينة من رؤوس الأسر البدوية في منطقة الدراسة . وقد ظهرت بعض نتائج هذه الدراسة الحقلية في تقرير غير منشور للباحث اقتصر فيه على تحليل نتائج المسح الحقلية لمنطقة هضبة التيسية فقط (٣) .

يختلف هذا البحث جذرياً عن التقرير المشار إليه أعلاه وذلك من حيث المضمون والأهداف ومن حيث اتساع المنطقة التي يدرسها . ويختلف هذا البحث أيضاً في اعتماده على تحليل إجابات واحد وثلاثين فرداً من رؤوس الأسر البدوية الذين تمت مقابلتهم لغرض الاستبيان في خلال فترة الدراسة الحقلية الثانية بينما اعتمد التقرير السابق على تحليل إجابات ستة عشر فرداً فقط . ويختلف البحث الحائلي أيضاً عن التقرير المشار إليه أعلاه باستخدامه لعدد أكبر من أسئلة هذا الاستبيان . وقد تم توظيف الجزء الرئيسي من النتائج الموسعة لهذا الاستبيان بشكل مباشر في وضع عدد من الجداول الخاصة بهذا البحث أما الجزء الآخر من هذه النتائج فقد تم توظيفه في وضع استشهادات ومؤشرات لنفس هذا البحث . يعتمد هذا البحث أيضاً وبشكل كبير على الملاحظات الحقلية ونتائج المقابلات التي أجراها الباحث مع بعض الأشخاص ذوي المعرفة في منطقة البحث خلال فترتي الدراسة الحقلية الأولى والثانية .

يتقدم الباحث بالشكر لمصلحة الأرصاد وحماية البيئة لإتاحتها الفرصة له بالمشاركة في برنامج الدعم البيئي للبادية . كما يشكر أمانة منطقة حائل وعلى رأسها صاحب السمو الملكي الأمير مقرن بن عبدالعزيز والذي تابع بنفسه عملية المسح الحقلية في منطقة حائل . أشكر أيضاً القائمين على مركز الجزيرة الذي يشرف إدارياً على منطقة الدراسة وأخص بالشكر رئيس المركز الشيخ مناور رشيد الفاحس الخريبي كما أشكر السيد فهيد الوهبي الذي رافقني في التجول بالمنطقة وسأهم كثيراً في تعريفني بها . أشكر أيضاً السيد عبيد بن عيد بن ربيع الوهبي الذي عرفني بالكثير عن منطقة التيسية . وأشكر رؤوس الأسر البدوية الذين استضافوني في بيوتهم وتعاونوا معي في الإجابة على أسئلة الاستبيان الخاصة بهذه الدراسة .

أقدم شكري أيضاً للدكتور عيسى الخرتاني كما أشكر الدكتور محمد مشخص شراجمته مسودة هذا البحث وتقديمه لملاحظات قيمة ساهمت في إخراجه بشكله الحالي . كما أشكر الزميل الأستاذ إبراهيم وداعة الله على مساهمته في وضع خرائط هذا البحث .

مصطلحات البحث

تم في هذا البحث إطلاق مسمى أسر بدوية على الأسر التي تقطن منطقة الدراسة وذلك بالرغم من أن هذه الأسر تتبع نمط حياة شبه الاستقرار . ويبرر استخدام هذا المصطلح استمرار هذه الأسر جميعها في مزاولة العمل الرعوي كمهنة أساسية . كما أن الغالبية العظمى من هذه الأسر لا تزال تسكن في خيام خارج المستوطنة الوحيدة في منطقة الدراسة ويجرى نقل هذه الخيام من موقع لآخر على فترات متباعدة . ويقتصر مسمى جماعات بدوية في هذا البحث على البدو في خارج منطقة الدراسة بينما يستخدم مسمى بدو كمصطلح عام . ويخصص الباحث مصطلح نمط حياة شبه الاستقرار لوصف نمط من الحياة المرتبطة بموقع ثابت أو شبه ثابت للسكن . وبالرغم مما يحمله هذا المصطلح من مفهوم اجتماعي إلا أنه يستخدم في هذا البحث لوصف نمط الحياة الاقتصادية التي تتبعها الأسر البدوية في منطقة الدراسة . فيوضح هذا المصطلح مدى الارتباط بين أشكال حركة التنقل والترحال الموسمي وبين الكيفية التي تستغل بموجبها هذه الأسر الموارد البيئية المتوفرة في منطقتهم .

كما يطلق الباحث مسمى التيسية على منطقة الدراسة وذلك بسبب شيوع استخدام هذا المسمى . ولكن سيتم استخدام مسميات أخرى مثل مركز الزبيرة وذلك عند الضرورة .

الأساس البيئي لوظيفة الرعي البدوي والنموذج التقليدي لها

يحتل البدو عادة الأماكن الأقل إنتاجية من المناطق الجافة في العالم القديم حيث لا تسمح ظروف التربة والأمطار إلا بوجود حياة نباتية تنصف بالندرة والتبعثر . ولا يمكن للإنسان أن يستغل هذه الحياة النباتية إلا بطريقة غير مباشرة وذلك بتربيته لأنواع خاصة من الحيوانات المجترة التي يمكن أن تستغل الغطاء النباتي المتوفر . ويمكن للإنسان أن يعيش بدوره على ألبان ولحوم وصوف هذه الحيوانات . وبسبب تبعثر الغطاء النباتي وقلة موارد مياه الشرب فإن الحيوانات التي يربئها الإنسان في هذه البيئة يجب أن تتقل من مكان لآخر بصفة دائمة . ويفرض هذا المتطلب من العاملين في وظيفة الرعي البدوي دوام الترحل وعدم القدرة على اتخاذ مأوى ثابت في معظم أيام السنة . ويتطلب النجاح في مثل هذه الوظيفة أن يتوفر للعاملين فيها إلمام كبير بالحيوانات التي يربونها وطرق العناية بها وعن المناخ والحياة النباتية في مناطق ترحلهم . كما أنه يجب عليهم أن يتمتعوا بمهارات عالية في الاهتداء ومعرفة الطريق وسط البرية ، إضافة إلى مجموعة أخرى من المهارات الضرورية . وتتقل هذه المهارات من الآباء للأبناء عن طريق مشاركة الأبناء لآبائهم في مشاق هذه الوظيفة .

ترتكز وظيفة الرعي البدوي أساساً على توفر الماء والكلأ ، وهما موردان يتصفان بالندرة والتبعثر في المناطق الجافة حيث تسود هذه الوظيفة . لذلك فإن وظيفة الرعي البدوي في شكلها التقليدي الذي اختفى أو يكاد أن يختفي تستند على نظام دقيق للترحل وراء هذين الموردين . ويتكون نظام الترحل هذا من حركتين إحداهما ذات مدى قصير تتم خلال الفصل المطير . تتطلب هذه الحركة التنقل كل بضعة أيام أو حتى كل يوم من مكان لآخر وراء الكلأ وبرك الماء التي خلفتها الأمطار . أما الحركة ذات المدى الطويل فهي التي تتطلب الترحال الموسمي إلى مكان القاعدة الصيفية حيث يتوفر مصدر ثابت لمياه الشرب يقضي به البدو فصل الصيف ثم يغادرونه مع ابتداء فصل الأمطار . وقد تبلغ المسافة التي تقطعها أي مجموعة بدوية في رحلتها من قاعدتها الصيفية إلى المراعي الشتوية ثم عودتها إلى هذه القاعدة مئات الكيلومترات . ويعتبر رعاة الإبل مثل الرواله وبنو مرة في المملكة العربية السعودية والرقيبات في موريتانيا

والكبابيش في السودان الأبعد نجمة في هذا الخصوص حيث يمكن أن تقطع هذه القبائل مسافة ألف وخمسمائة كيلومتر مشياً في حركة تنقلها الموصوف أعلاه .

وقد تطلبت ضرورة التنقل المستديم أن يكتفي البدو بالقليل جداً من الأثاث والأدوات المنزلية مما يمكن أن يحمل كله على ظهر جمل واحد مخصص للحمل «الزُمل» ، أو اثنين منهما . أما بالنسبة للغذاء فإن حليب النياق أو حليب الشياه كان يدهم بقسط كبير من حاجاتهم الغذائية . ولذلك لم تكن لديهم حاجة إلا لحمل القليل من الزاد والذي يكون في الغالب من التمر وربما القليل من الحبوب أو الطحين . وتنحصر حركة التنقل التي تمارسها أي مجموعة رعوية ، سواء أكانت هذه المجموعة تمثل قبيلة أو جزءاً منها ، ضمن منطقة معروفة ذات حدود هي أرض القبيلة «الديرة» . وقد تضطر هذه القبيلة إلى ترك أرضها التي تعرضت لانحباس الأمطار إلى أرض أي قبيلة مجاورة ، سلماً أو حرباً ، لاستخدامها مؤقتاً . كما أن أرض هذه القبيلة نفسها قد تصبح موضعاً لإقامة القبائل المجاورة في حالة تعرض أرض هذه القبائل للجفاف . ونجد لهذا أن حركة تنقل البدو وراء الكلاً والماء يتحكم فيها كلاً من عامل الفصلية وعامل الالتزام بحدود أرض القبيلة ولذلك فإن ما يفرضه هذان العاملان من ضرورة التقييد بحركة ذات غاية وتوقيت محدودين يجعل من الدورة الرعوية التي يتبعها البدو عملاً منظماً ليس فيه مجال للعشوائية . ويتضح هذا الانتظام خصوصاً في حقيقة أن الهجرة الفصلية التي يقوم بها البدو تستند إلى أساس منطقي . وهذا الأساس هو الرغبة في توظيف قابليتهم على الحركة لاستغلال الفروقات الفصلية في مدى توفر النبات ولأجل التمكن من استغلال بيئات مختلفة .

تم عملية استخدام موارد المرعى من نبات طبيعي عن طريق تنقل البدو في شكل مجموعات صغيرة يسمى كل منها وحدة رعوية Herding Unit . وتتكون الوحدة الرعوية في المناطق الأكثر جفافاً من عدد قليل من الأسر البدوية (Johnson , 1969,9) والتي تهاجر معاً وتشارك في استغلال نفس المرعى . وتشير دراسة كول (Cole , 1975,48) إلى أن هذا العدد لا يزيد إلا نادراً عن أربع أسر في مثل هذه المناطق . ويتسم نمط توزيع الوحدات الرعوية في هذه الحالة بوجود مساحات كبيرة تفصل بين الوحدة

والأخرى (Ibid. 41 and 42) . وقد يختلف الأمر في المناطق الأغنى بالحياة النباتية مثل بعض مناطق شمال الجزيرة العربية وبادية الشام حيث يمكن أن نجد عدداً أكبر من الأسر في كل وحدة رعوية . ولكن لا يحدث أي تجمع لعدد كبير من الأسر البدوية إلا في فصل الجفاف «القيظ» عندما يلجأ هؤلاء إلى حط رحالهم في قاعدتهم الصيفية عند أي واحة أو عند أي مكان به معين دائم من الماء . لم يعن هذا الاستقرار الصيفي انعدام الحركة . فلامتلك أن تجمع عدد كبير من الأسر البدوية بقطعاتها كان سيؤدي إلى استنزاف للغطاء النباتي في المنطقة المحيطة مباشرة بمصدر الماء . ولتلافي هذا الأمر كانت تؤخذ الحيوانات صباحاً إلى أبعد نقطة يمكن أن تصلها لأجل استغلال الغطاء النباتي البعيد عن هذا المصدر . ويمكن الاعتماد على ملاحظة كول (Cole, 1975:52) للتأكيد على أن الجمال كانت تطلق بدون راع ، على الأقل في بعض الحالات ، للبحث عن الكلاء بنفسها على أن تعود إلى مورد الماء كل أربعة أيام . ولكن من المؤكد أنه في حالة الماعز والضأن أن كل أسرة بدوية كانت ترسل قطيعها بصحبة أحد ذكور الأسرة عند الفجر ليعود بها آخر النهار . وقد وجد الباحث أن البدو في منطقة الدراسة كانوا يعتمدون في بعض الأحيان ، وذلك للتخلص من مشكلة ضعف المرعى حول مصدر الماء ، إلى اتباع نظام ما يسمى «عُب وعريجه» . فقد كانوا يرسلون أغنامهم بموجب هذا النظام لترعى مدة يوم ونصف ثم تعود في منتصف اليوم الثاني لتشرب (٤) . ولا شك في أن مثل هذا النظام كان يمكن كل أسرة من إرسال أغنامها إلى أبعد مسافة ممكنة عن القاعدة الصيفية حتى تتمكن من استغلال مراعي غير مستخدمة . ويمكن الافتراض أن مثل هذا النظام شاع في منطقة الدراسة في بداية تأسيس الدولة السعودية وذلك بسبب اختفاء الحروب القبلية والتي لم تكن تشجع على نجاحه سابقاً (٥) . ولا تتمكث أي وحدة رعوية مهما كان حجمها في أي بقعة لفترة طويلة في خلال الفصل المطير . ويبدو أن فترة الإقامة هذه قد تصل إلى عشرة أيام في المناطق الأغنى في حياتها النباتية (Dickson . 1949:51) ولكنها تقل بكثير عن هذه المدة في المناطق الأقل غنى .

يشير الكثير من الباحثين إلى أن متطلبات العمل الرعوية من عنابة بالحيوانات تجعل من الضروري أن يكون هنالك حد أعلى لما يمتلكه البدو منها

(Gefu and Gilles , 1990 , 36 ; Johnsos , 1969 , 11 ; Spooner , 1973 , 9 and 11) .
ويمكن أن يضاف إلى هذا أن عامل دوام الترحل يعطي أصحاب القطعان الصغيرة مرونة أكبر عند التنقل من مكان لآخر ولذلك فإن أكثرية البدو كانوا يميلون إلى امتلاك قطعان صغيرة (٦) .

يمكن التأكيد على أن وظيفة الرعي البدوي في شكلها التقليدي بنيت فيها آليات تعمل على منع حدوث أي استغلال استنزافي للموارد الرعوية . فنجد أن تنظيم عملية الرعي من حيث الهجرة الموسمية والتنقل بين مناطق مختلفة، كما وصف أعلاه، أدى إلى تقليل عمليات الجور على المرعى . فتوقيت حركة الهجرة واتجاهها، سواء أكانت حركة ذات مدى قصير أو مدى طويل، تقرر لدى البدو اعتبارات لها علاقة بالرغبة في المحافظة على نباتات المرعى لأجل الاستخدام في المستقبل انظر (Johnson 1977) . Sweet, 1969 . 52 ; 1993, 52 . كما أن مفهوم الديرة نفسه والذي يعني وجود أرض خاصة بكل قبيلة، أدى إلى حماية المراعي من الاستخدام الاستنزافي وذلك بالإقلال من استغلالها إلى أدنى حد ممكن بحيث يكون هذا الاستخدام قاصراً على أفراد القبيلة صاحبة الديرة . ويؤدي صغر الوحدات الرعوية وصغر أحجام القطعان التي تمتلكها كل أسرة بدوية إلى الإقلال أيضاً من حدوث أي استنزاف للمرعى . كما تساهم حركة الترحل الدائمة للبدو إلى منع حدوث أي إزالة تامة للنباتات الرعوية . ويؤدي هذا إلى إعطاء بقايا هذه النباتات القدرة على استمرار النمو وإعطاء بذور تساهم في إغناء الحياة النباتية في السنة التالية .

أسباب التغير ومظاهره في وظيفة الرعي البدوي

يكشف الوصف السابق ذكره أن وظيفة الرعي البدوي تختلف جذرياً في شكلها التقليدي عما هي عليه الآن . فأى نموذج معاصر للبدو الرعاة يظهر أن هؤلاء أقل حركة ولديهم قطعان أكبر من الأغنام عما كان لدى من سبقهم كما أن تأثير نشاطهم الرعوي على البيئة هو أشد ضرراً عما كان عليه في أي وقت مضى . ويقف وراء هذا الاختلاف عوامل عديدة ذات صلة بتطورات خارجة عن إرادة البدو . وتتمثل هذه التطورات في حدوث تحولات اجتماعية واقتصادية في الدول التي تضمهم .

ويمكن وصف الموقف الذي يواجهه وظيفة الرعي البدوي ويتطلب منها أن تتغير بأنه يمثل أزمة حقيقية تمر بها هذه الوظيفة وذلك كما تشير الكثير من الدراسات المتوفرة عن هذا الموضوع - 14 . 1977 . UNESCO . x - xii ; 1981 . Salzman . 58 - 61 ; 1993 . Johnson (15) . وقد ساهمت كارثة الجفاف التي تعرضت لها منطقة الساحل من غرب إفريقيا خلال الأعوام ١٩٦٨ - ١٩٧٢ في تعزيز وجهة النظر القائلة بوجود هذه الأزمة وذلك بسبب ما أدت إليه هذه الكارثة من مجاعة وهجرة جماعية وفقدان أرواح ونفوق حيوانات . ويمكن ملاحظة نفس هذا الإحساس بوجود أزمة حقيقية تواجه البادية على مستوى دولة كالمملكة العربية السعودية في وثيقة الخطة الخمسية الثانية للتنمية (وزارة التخطيط ١٣٩٥ ، ٦١١ - ٦١٢) والتي نصت على أن «معدل التغير في باقي أجزاء المملكة كان سريعاً جداً في الآونة الأخيرة مما أدى إلى ازدياد التفاوت الاقتصادي والاجتماعي بين البدو الرحل وبقية السكان في المملكة» . ويمكن توضيح أبعاد هذه الأزمة بشكل عام من خلال عرض النقاط التالية :

يؤكد الباحثون في موضوع البداوة الرعوية على أن وظيفة الرعي البدوي تعرضت إلى التدهور مع مطلع القرن العشرين . ففيما يختص بالناحية الاقتصادية لهذه الوظيفة فقد تناقصت القيمة المالية للأنعام التي يربّيها البدو مقابل السلع التي يحتاجون لشرائها من المجتمعات غير الرعوية (٧) . وفقد البدو أيضاً احتكارهم لنشاط النقل على طرق السفر والتجارة كما فقدت إبلهم بسبب ذلك قيمتها الاقتصادية نتيجة لتطور وسائل المواصلات . ويمكن القول أن الوضع الاقتصادي للبدو ازداد صعوبة مع فقدان هؤلاء لمركزهم السابق كقوة حربية يعتد بها وذلك نتيجة لظهور الدول المركزية الحديثة والقوية . أما فيما يختص بالناحية الاجتماعية فإن حياة التنقل التي تفرضها طبيعة اقتصاد الرعي البدوي أدت إلى صعوبة استفادة البدو من الخدمات الصحية والتعليمية والخدمات الاجتماعية الأخرى التي بدأت الحكومات الحديثة بتقديمها للمواطنين .

أدت التطورات المشار إليها أعلاه إلى ازدياد الهوة بين مستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات المستقرة وبين مستواها لدى المجتمعات البدوية داخل الوطن الواحد . ويعني هذا أن البدو كان لابد عليهم أن يروا بعدد من التغيرات التي تمكنهم

من التلاؤم مع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الجديدة ، ويجعل من هذه التغيرات ضرورة لا بد منها حقيقة أن البدو لم يعيشوا بمعزل عن المجتمع الكبير المستقر الذي يحيط بهم ، ولذلك فإنهم يتأثرون - كما تأثروا سابقاً - بأي تغير يحدث في هذا المجتمع . ويعود هذا الارتباط إلى حقيقة أن البدو - بحكم تخصصهم وحاجتهم للتبادل التجاري مع المجتمعات المستقرة - قد ارتبطوا مع هذه المجتمعات منذ قديم الأزل بعلاقات تجارية تسودها المنافع المتبادلة "Symbiotic Relationships" . ويتضح من هذا أن التعديلات التي حدثت في اقتصاد الرعي البدوي جاءت كمحاولة للتكيف مع حالة الأزمة المشار إليها أعلاه . فقد أحدثت مثل هذه التعديلات لضمان أن لا يكون البدو طرفاً خاسراً في أي علاقة تجارية مع المجتمعات المستقرة .

التغيرات في وظيفة الرعي البدوي بالمملكة العربية السعودية

تمت الإشارة إلى أن التغير في وظيفة الرعي البدوي جاء كنتيجة لتحويلات اقتصادية واجتماعية في الدول التي يعيشون داخلها . ونجد في حالة المملكة العربية السعودية أن هذه التحويلات جاءت كنتيجة لتطورين مهمين وهما :

(أ) تأسيس الدولة السعودية كدولة مركزية وقوية في بداية هذا القرن والتي استطاعت أن تفرض واقعا اقتصاديا واجتماعيا جديدا .

(ب) تدفق دخل وطني وفير عن طريق صادرات البترول .

وقد تسبب هذان التطوران في بروز ظروف عمل جديدة كان ولا بد وأن تتكيف معها وظيفة الرعي البدوي حتى يمكن أن تقوم بدورها كمصدر رزق للعاملين فيها . ويمكن التمييز هنا بين ثلاثة مراحل من التغيرات التي طرأت على وظيفة الرعي البدوي نتيجة لهذه التحويلات .

المرحلة الأولى : وبدأت المرحلة الأولى لهذه التحويلات مع بداية تأسيس الدولة السعودية الثالثة في مطلع القرن العشرين واستمرت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وتميزت هذه المرحلة بانتهاء الحروب القبلية وسقوط البدو كقوة حربية وبدء فترة التحديث في الاقتصاد والمجتمع السعودي . تسببت هذه العوامل في حدوث تطورات

منها تدهور القيمة المالية للإبل . وترتب على هذه التطورات حدوث تغيير في حياة الجماعات البدوية ومن أهم أوجه هذا التغيير بدء كثير من البدو في الاستقرار .

المرحلة الثانية : وبدأت هذه المرحلة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتهت عام ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م . وتتصف هذه المرحلة بحدوث زيادة كبيرة في الدخل الوطني من صادرات البترول وخصوصاً بعد عام ١٩٥٠ م . وقد مكنت هذه الزيادة من البدء في مشاريع مخصصة لخدمة البدو ومنها حفر آبار حكومية لسقيا البادية في مناطق عديدة .

اتصفت هذه المرحلة أيضاً بحدوث فترة من الجذب للمناطق الشمالية من البلاد وسقوط الحدود القبلية بقرار إلغاء نظام الحمى في عام ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م وقد أدت هذه التطورات مجتمعة إلى حدوث تغييرات في الحياة الاقتصادية للبدو من أهمها انخراط الكثير منهم في أعمال خارج نطاق اقتصاد الرعي البدوي وبدء استخدامهم للسيارة وانقاصهم لأعداد الجمال التي يربونها . وقد ترتب على هذا حدوث تغيير في حركة الترحل للبدو حيث إن استخدام السيارات وتوافر الماء مكن الكثير منهم من اتخاذ نظام للرعي أقل حركة عن النمط التقليدي للبدوة الرعوية . كما أن نفس هذين العاملين بالإضافة إلى عامل إزالة الحدود القبلية مكن البعض الآخر من القيام بهجرات فصلية ذات مدى أبعد مما اعتادوا عليه سابقاً .

المرحلة الثالثة : أطلت هذه المرحلة مع عام ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م . وقد أذنت الزيادة الكبيرة في أسعار البترول ببداية هذه المرحلة . وتتصف هذه المرحلة بوجود توسع كبير في الإنفاق الحكومي صاحبه توسع مماثل في الاقتصاد الوطني . ويميز هذه المرحلة ظهور برامج حكومية جديدة من المساعدات المالية السخية المخصصة للبدو . كما تتصف هذه المرحلة بظهور فرص للتوظيف والأعمال الحرة أكبر مما سبق لهؤلاء البدو . وقد أدت هذه التطورات إلى تغييرات مهمة من أهمها بدء اتخاذ الكثير من البدو لنمط حياة شبه الاستقرار وذلك كما سيفصل لاحقاً . وقد خصصت الصفحات التالية لإعطاء نقاش مبسط للآلية التي حدثت بموجبها التغييرات المختلفة خلال المراحل الثلاثة وذلك على الوجه التالي :

حدثت التغييرات في وظيفة الرعي البدوي في حالة المملكة العربية السعودية كنتيجة لتأثير عوامل التحديث التي بدأت مع بداية المراحل الأولى لتأسيس هذه الدولة. وكما هو الحال في الدول العربية الأخرى وخصوصاً الدول التي ظهر فيها البترول بكميات تجارية فإن التوسع في الإنفاق الحكومي وما صاحبه من توسع في الاقتصاد الوطني كان لهما الدور الأكبر في إحداث هذه التغييرات. ويمكن القول أنه مع كل مرحلة جديدة من التوسع الاقتصادي في هذه الدول تسارعت أيضاً حركة التغيير في حياة البدو القاطنين بها. ولا شك بأن التوسع الاقتصادي الكبير الذي تلا الزيادة الكبرى في أسعار البترول بعد عام ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م أدى إلى تغييرات ذات أثر أعمق في حياة هؤلاء. ويمكن افتراض أن الآلية التي حدثت بموجبها هذه التغييرات اعتمدت على عوامل المقدرة المالية الكبيرة التي تمتعت بها هذه الدول للإنفاق على برامج التنمية الاقتصادية وتطوير الخدمات الاجتماعية وما أدى إليه هذا الإنفاق من ظهور فرص توظيف كبيرة. كما أن التوسع الاقتصادي خارج القطاعات الحكومية أدى نفسه إلى خلق فرص اقتصادية أخرى في مجال الاستثمار والتوظيف.

ويلاحظ أن هذه التطورات الاقتصادية حدثت في مناطق خارج إطار اقتصاد الرعي البدوي وخارج المناطق التقليدية للبدو. ولكن وصل تأثيرها إلى اقتصاد الرعي البدوي بطريقة غير مباشرة عن طريق اجتذاب أعداد من البدو للعمل في الوظائف التي حدثت نتيجة لهذه التطورات. ويمكن القول أن الكثير من هؤلاء البدو ذهبوا للعمل في شركات البترول ومنها شركة أرامكو والتي جذبت منذ قيامها أعداداً كبيرة من أبناء البادية. كما أن البعض ذهب للعمل في وظائف عسكرية أو في وظائف مدنية أخرى. وبالرغم من أن عدداً كبيراً من هؤلاء البدو استعدبوا حياة الاستقرار وتركوا العمل في وظيفة الرعي إلا أن عدداً كبيراً منهم استخدم هذه الوظائف كمصدر ثان للدخل ساعدهم على شراء مواد استهلاكية جديدة ولزيادة حجم قطعانهم من الحيوانات. ويتضح مثل هذا الاتجاه في دراسة كول (COLE, 1975, 106) والتي يشير فيها إلى أهمية الدخل من خارج نشاط الرعي البدوي في تمكين البدو من شراء لوازم استهلاكية. وكما كشف العمل الحقلية فإن الكثير من البدو في منطقة الدراسة قاموا بهجرات عقب

بعض فترات الجفاف للبحث عن عمل آخر . وتوجهت إحدى هذه الهجرات في حوالي عام ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م ، خلال ما عرف محلياً بسنة الكسوف ، إلى الرياض والدمام والكويت لغرض الحصول على دخل لشراء قطعان جديدة تعوض ما فقده من حيوانات خلال فترة الجفاف . ويتضح هذا الاتجاه أيضاً في حالة دول عربية أخرى بها مجموعات بدوية مثل ليبيا (Behnke . 1980 . 86) . كما يتضح وبشكل أقوى في حالة كل من الإمارات العربية المتحدة وعمان (Cordes and Scholz . 1980 . 59 ; Peterson 1973.308)

لاشك في أن الدخل المتولد من خارج اقتصاد الرعي البدوي ساعد الكثيرين من البدو على الاحتفاظ بوظيفتهم كمربين للأنعام . فقد مكنتهم هذا الدخل من التغلب على ظاهرة الاختلال في الميزان التجاري الخاص بهم ، والتي طرأت على العلاقة التجارية بينهم وبين المجتمع المحيط بهم مع بداية القرن العشرين . فالتغير الاقتصادي داخل الدول التي يعيشون فيها أدى إلى ارتفاع أسعار البضائع التي يشترونها مقارنة بأسعار الأنعام التي يبيعونها . وقد تسبب عاملان في حدوث هذا الاختلال في الميزان التجاري . وينطبق أول هذين العاملين على الدول المصدرة للبتروول . وحدث بمقتضاه أن التوسع الاقتصادي في هذه الدول وما تلاه من توسع في حركة الاستيراد أدى إلى وضع حد لأي ارتفاع في أسعار حيوانات الذبح وخصوصاً الجمال الأمر الذي قلل من استفادة البدو من حركة الارتفاع العام في الأسعار بهذه الدول . أما العامل الثاني فهو عام ويتعلق بانتهاء دور الجمل كوسيلة للنقل الأمر الذي أدى إلى انخفاض شديد في أسعاره وذلك كما أشير إليه سابقاً . ولهذا فإن البحث عن مصدر إضافي للدخل أصبح ضرورة لدى الكثير من البدو لكي يتمكنوا من سد العجز الذي حدث في دخلهم بسبب انخفاض أسعار الحيوانات . ولابد من الإشارة هنا إلى فترات الجفاف التي ضربت المملكة العربية السعودية خصوصاً في فترة الخمسينيات والتي أدت إلى فقدان الكثير من البدو إلى ما يصل إلى ٩٠٪ من حجم قطعانهم من الإبل والأغنام ، وذلك طبقاً لما كشفتته نتائج العمل الحقلية في منطقة الدراسة وما كشفتته دراسة أليريد (١٩٦٨ ، ص ١٤) عن المنطقة الشمالية والشرقية بشكل عام . قدمت هذه الوظائف البديل المناسب للبدو ليس فقط لتغطية العجز الذي حدث بسبب الانخفاض النسبي في أسعار

الحيوانات ولكن ، وبصورة أساسية في حالة الجماعات البدوية التي تضررت بالجفاف ، لتعويض فقدان هؤلاء لمورد رزقهم الوحيد والذي تشكله الحيوانات التي يربونها .

عمل الدخل الإضافي الذي بدأ يكسبه بعض البدو على إحداث تغييرات عميقة الأثر في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية . فقد أدى هذا الدخل من ناحية إلى تغيير أنماط الاستهلاك لدى البدو كما ساعد الكثيرين منهم على شراء مدخلات إنتاج حديثة مثل السيارات لتساهم في تحسين ظروف العمل من ناحية أخرى . وقد تسببت الرغبة في الحصول على دخل خارجي إلى خلق أزمة عمالة بسبب غياب اليد العاملة الشابة والتي هاجرت لتبحث عن فرص عمل خارج نطاق اقتصاد الرعي البدوي . وأدى هذا بدوره إلى فرض ظروف عمل تطلبت تغييرات أخرى في وظيفة الرعي البدوي وذلك كما سيتضح لاحقاً .

حدثت التغييرات المشار إليها أعلاه ، ومنها إمكانية الحصول على دخل إضافي ، كنتيجة لتطورات خارج نطاق اقتصاد الرعي البدوي وخارج المناطق التقليدية للبادية . ولكن صاحب هذه التغييرات تغييرات أخرى حدثت كنتيجة لعوامل أثرت في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للبادية بطريقة مباشرة . وتمثل هذه العوامل في البرامج الحكومية الموجهة لخدمة البادية في مناطقهم . ويمكن الإشارة إلى التالي كأثلة على هذه البرامج : قيام مشروعات مثل المدارس والمستوصفات التي أقيمت في مناطق سقيا البادية ، حفر آبار للسقيا ، صرف معونات على شكل هبات مالية تصرف في أوقات العسر والشدة (٨) ، صرف إعانات إنتاج تعطي على الأغنام والإبل (٩) وأخيراً المعونة المالية على مشتريات الشعير والتي بدأ العمل بها منذ عام ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م . ويمكن التعرف على تأثير هذه البرامج من حقيقة أنها تسببت في تقبل الكثير من البدو لأنماط جديدة من وظيفة الرعي البدوي تعتمد على قدر أقل من الحركة عما اعتادوا عليه في نمطهم التقليدي سابقاً ، وذلك كما تم وصفه من قبل بعض الباحثين (Economides, 1987, 9-10) . كما أنها شجعت الميل لدى البدو على زيادة أحجام قطعانهم من الحيوانات (Economides, 1987, 13) .

ونجد أن هذا التأثير لا يختلف كثيرا في دولة الإمارات العربية المتحدة والتي يوجد بها عدد كبير من البدو . فقد أدى نظام مماثل للبرامج التشجيعية المتوفرة في المملكة العربية السعودية إلى نفس النتائج وذلك بتمكينه للبدو في هذه الدولة من الاحتفاظ بعدد كبير من الحيوانات في نفس الوقت الذي تمكنوا فيه أيضاً من أن يعيشوا حياة مستقرة في مستوطنات ريفية (Cordes and Scholz, 1980, 42) . وقد أدى التوسع في حفر الآبار الحكومية وتقديم خدمات بيطرية إلى نفس نتيجة الزيادة في أعداد الحيوانات التي يمكنها البدو الرعاة في السودان (Khogali, 1981, 305) وفي كثير من دول الساحل من غرب أفريقيا (UNESCO, 1977, 15) .

تضافرت العوامل المشار إليها أعلاه والتي عملت بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، في فرض ظروف اقتصادية واجتماعية جديدة تطلبت سلسلة من التغيرات في وظيفة الرعي البدوي . وكما هو واضح في حالة المملكة العربية السعودية بشكل عام ومنطقة الدراسة بشكل خاص فإن هذه التغيرات أدت إلى ظهور أنماط حديثة لوظيفة الرعي البدوي أدت إلى جعل هذه الوظيفة في وضعها الحالي مختلفة جذريا عن الشكل التقليدي لها . ويمكن تلخيص هذه التغيرات في التالي :

- ١ - تغيرات في أسلوب مزاوله وظيفه الرعي البدوي .
- ٢ - تغيرات في نوع العماله .
- ٣ - تغيرات في أنماط الاستهلاك .
- ٤ - زيادة في نسبة التوجه في الإنتاج نحو السوق .
- ٥ - تغيرات في حجم القطعان ونوع الحيوانات التي تربي .
- ٦ - تغير في مصادر الدخل التقليدي .
- ٧ - تغير في مدخلات الإنتاج وذلك مثل الاستخدام الموسع للسيارات .
- ٨ - زيادة الاعتماد على الخدمات والمعونات الحكومية .
- ٩ - تغير في نظام الترحل والذي أصبحت تمارس بموجبه وظيفه الرعي البدوي اعتماداً على أقل قدر ممكن من الهجرة الفصلية والحركة . ويمثل هذا التغير أحد أهم التغيرات . وقد نتج عن هذا التغير أن الجماعات البدوية التي تمارس هذه الوظيفة

تحولت من نمط حياة البداوة إلى نمط حياة شبه الاستقرار . ولذلك فإن هذا التغيير سيعالج بصفة خاصة في السطور التالية وذلك نظرا لما تبعه من تطورات أخرى .

التغيير نحو نمط حياة شبه الاستقرار في المملكة العربية السعودية

عمدت الكثير من الأسر البدوية إلى تعويض النقص في الأيدي العاملة ، وهو نقص تسببت فيه هجرة الشباب إلى المدن ، بتوظيف السيارة في مهمات رعوية أهمها حمل الماء إلى مواقع مخيماتها . ويمكن الافتراض أن هذا الاستخدام للسيارات كان يمكن أن يساهم في جعل هذه الأسر البدوية أكثر حركة عن ذي قبل ، من الناحية النظرية على الأقل . فقد أدى استخدام السيارات ل جلب الماء إلى تمكين الأسر البدوية من أن لا تلتزم بأن يكون موقع مخيمها في فصل الصيف مرتبطاً بموقع مصدر للماء . وقد أدى هذا الاستخدام نفسه إلى تقليل أهمية عنصر الماء في تحديد المناطق التي يمكن أن يأخذ إليها البدو حيواناتهم ليرعوها في باقي فصول السنة . فبسبب قدرتهم الجديدة على حمل الماء بالسيارات إلى أي مكان لذلك فإنه أصبح بإمكانهم أن يستغلوا مناطق لم يكونوا قادرين على المكوث أو حتى الدخول فيها سابقاً . ومما ساعد على جعل البدو أكثر حركة في حالة المملكة العربية السعودية أن الآبار التي قامت الحكومة بحفرها لاستخدام البادية في كثير من البقاع النائية جعلت من عنصر الماء أكثر انتشاراً عن ذي قبل .

لقد حدث عكس ما كان متوقعا . فلاشك في أن المزايا المشار إليها اعلاه والتي وفرها استخدام السيارات أدت إلى تغيير في نظام الترحل الذي يتبعه البدو في ممارسة وظيفة الرعي البدوي . ولكن التغيير الذي حدث في هذا النظام لم يعن أن هؤلاء أصبحوا أكثر حركة بل حدث العكس إذ أصبحوا أقل حركة عن ذي قبل . فبدأت كثير من الجماعات البدوية في المملكة العربية السعودية بشكل عام ، ومنها الجماعات التي تقع ديرتها في منطقة الدراسة ، في ممارسة وظيفة الرعي البدوي بأسلوب يعتمد على أقل قدر ممكن من الحركة . ويمكن اعتماداً على هذا وصف هذه الجماعات بأنها

جماعات شبه بدوية "Semi-nomads" وشبه مستقرة "Semi-sedentarized" أكثر مما هي جماعات بدو حقيقية . وسيتم في هذا البحث وصف نمط حياة شبه الاستقرار والنتائج التي ترتبت على ظهوره في منطقة الدراسة اعتماداً على بيانات العمل الحقلية بالإضافة إلى بيانات من مراجع متخصصة سيشار إليها في حينه . وسيتم توظيف هذه البيانات أيضاً كمؤشرات لتحليل هذا النمط على مستوى المملكة العربية السعودية .

نمط حياة شبه الاستقرار (Semi - sedentary Life)

يهدف هذا البحث إلى وصف نمط حياة شبه الاستقرار والذي يشكل نمط الحياة السائد في منطقة الدراسة . ويمكن ، اعتماداً على فينان وزملائه (Finan et.al. 1995, 9) وصف هذا النمط بمحدودية حركة الأسر التي تتبعه وأنه قد يجري تغيير لموقع مخيم الأسرة مرة واحدة فقط في كل بضعة أشهر وذلك بنقله إلى موقع يبعد بضع كيلومترات عن الموقع القديم . ويتم هذا التغيير لأسباب صحية . ويتصف هذا النمط أيضاً بأن الأسر التي تتبعه تقيم على مسافة قريبة من مستوطنة وذلك لأجل تحقيق الاستفادة من الخدمات الحكومية مثل المدارس ومن السوق الموجود داخل هذه المستوطنة . وتقيم هذه الأسر عادة ضمن تجمعات بحيث لا تزيد المسافة بين مكان إقامة كل أسرة وأخرى داخل أي تجمع عن كيلو متر واحد فقط . وينبغي التأكيد هنا على أن مصطلح نمط حياة شبه الاستقرار له مدلول اقتصادي إذ يهتم بوصف العلاقة بين أشكال حركة الترحل لدى الأسر البدوية في منطقة الدراسة وبين كيفية استغلال هذه الأسر للموارد البيئية المتوفرة . وقد وصف هذا النشاط الاقتصادي ، الذي تحولت إليه هذه الأسر ، في أحد الدراسات (Habib, 1995, 17) بأنه يماثل كثيراً نشاط التربية المستقرة للحيوانات "Ranching" الذي يقوم في الجزء الجنوبي الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية . ولا تنفرد منطقة الدراسة بهذا التحول الاقتصادي إذ تؤكد دراسة عن ليبيا على أن الأسر البدوية في منطقة الجبل الأخضر تحولت إلى ممارسة هذا النوع من النشاط بعد أن تخلت عن حياة الترحل (Behnke, 1980, 88) .

ويمكن التمييز هنا بين شكلين مختلفين لنمط حياة شبه الاستقرار يعكسان هذا

التغير في الشكل التقليدي لوظيفة الرعي البدوي . ويتصف كل من هذين الشكلين بأسلوب معين من الترحل والاستقرار . كما أن كلا منهما يعتمد على توظيف مختلف للسيارة . ويتبع الشكل الأول على مدار السنة بينما يتبع الشكل الثاني في جزء من السنة . ولذلك فإن أي مجموعة بدوية تستطيع أن تتبع كلا الشكلين واللذين لا يوجد تناقض بينهما من حيث التوقيت . ويمكن نعت الشكل الأول بأنه الرئيسي بينما يمكن نعت الشكل الثاني بأنه ثانوي .

يعتمد كل من الشكلين على أسلوب معين من استغلال الموارد الرعوية المتوفرة . ومن المرجح أن الاختلاف في مدى توفر الإمكانيات المادية والاختلاف في التقدير الشخصي حيال الموارد الرعوية أدى إلى تبني أي مجموعة لأي من الشكلين أو كليهما . كما أن مدى الرغبة في الاستفادة من الخدمات الاجتماعية الحكومية - وذلك كما سيتضح لاحقاً - قد أثر على قرار تبني أي من الشكلين . ويجب الإشارة هنا إلى أن انتشار هذين الشكلين أدى إلى نتائج بيئية سلبية سيتم استعراضها لاحقاً .

الشكل الأول : يرتبط هذا الشكل بحياة الاستقرار إما في مستوطنات صغيرة تمت الهجرة إليها حديثاً أو في خيام قلما يتغير موقعها وتكون قريبة من المستوطنات الريفية . ويتألف النشاط الرعوي الذي تقوم به الأسر شبه المستقرة من حركة يومية قصيرة تؤخذ بموجبها الحيوانات لترعى في مواقع قريبة من مكان السكن بحيث تعود إلى هذا المكان عصراً أو في نهاية اليوم . ويغلب أن تتراوح المسافة التي تؤخذ إليها الحيوانات بين ٢-٥ كيلو مترات بعيداً عن مكان السكن . ونجد في غالب الأمر أن مهمات الرعي الفعلية يقوم بها رعاة مستأجرون وذلك لعدم توفر أيد عاملة كافية من نفس الأسر البدوية التي تمتلك الحيوانات . ويحدث هذا بسبب ذهاب الأولاد إلى المدارس أو بسبب إنشغال رؤوس هذه الأسر أو أولادهم الكبار بوظائف حكومية أو أنشطة تجارية خاصة . ويشكل عامل السن ضرورة أخرى تتطلب استخدام رعاة مستأجرين . فارتفاع أعمار رؤوس هذه الأسر يقلل كثيراً من قدرات هؤلاء على العمل في وظيفة مثل وظيفة الرعي البدوي التي تتطلب الكثير من الحركة . وتنعقد الحركة الفصلية حيث إن الارتباط بمكان السكن يؤدي إلى عدم حدوث أي ترحل موسمي بعيد المدى للأسر البدوية التي تتبع هذا النمط .

تعود أسباب ظهور هذا الشكل من نمط حياة شبه الاستقرار إلى عدة اعتبارات اقتصادية واجتماعية تؤدي إلى ارتباط البدو بالمستوطنات الريفية التي يعيشون بداخلها أو يضربون خيامهم بالقرب منها . فقد أدت الرغبة في الاستفادة من الخدمات الحكومية المجانية . مثل المدارس والمستوصفات ، التي تقوم في هذه المستوطنات إلى ضرورة التزام البدو بنمط حياة هو أقرب إلى الاستقرار عن الترحل . وقد شجع على هذا الالتزام وجود مصدر ثابت لمياه شرب الحيوانات في هذه المستوطنات والتي تتوفر فيها أيضا محلات لبيع الشعير المدعم ماليا من قبل الحكومة إضافة إلى توفر محلات تجارية يشترون منها ما يلزمهم من محروقات ومواد استهلاكية أخرى . كما تقدم فرص التوظيف والاستثمار الموجودة في هذه المستوطنات حوافر مادية تغري بعدم الابتعاد عنها .

الشكل الثاني : لا يختلف هذا الشكل عن الشكل الأول إلا في وجود حركة فصلية ذات مدى بعيد تتم في فصل الربيع في الغالب . ويتم نقل الحيوانات بموجب هذه الحركة في سيارات شحن كبيرة ، مستأجرة في العادة إلى منطقة بعيدة تقع في نفس ديرة صاحب هذه الحيوانات لأجل الاستفادة من تحسن حالة المرعى بها . ويحدث في السنوات التي تشح فيها الأمطار على هذه الديرة أن تنقل الأغنام بنفس الطريقة إلى المناطق التي تقع خارج حدود الديرة الأصلية . أما بالنسبة للجمال فإنها تساق سيراً إلى نفس المنطقة مع راع مستأجر في أغلب الحالات . أما صاحب الأغنام فإنه قد يسافر في نفس الشاحنة مع الأغنام أو يرسلها مع راع مستأجر بينما يصل هو إلى المنطقة نفسها في سيارة صغيرة مصحوباً بعائلته أو جزء منها فقط . وترسل الحيوانات بعد استنزاف المرعى في المنطقة التي أرسلت إليها إلى منطقة أخرى بعيدة بنفس الطريقة . وهكذا يتم التنقل من منطقة إلى منطقة أخرى حتى يتم انتهاء موسم الأمطار أو يتم إرسال الحيوانات مباشرة إلى المكان الذي أتت منه . وقد تتم هذه العودة ، بالنسبة للقادمين إلى المناطق الشمالية من مناطق السفوح الشرقية لجبال عسير والحجاز ، لأجل اللحاق بموسم الأمطار الصيفية في هذه المناطق الأخيرة . وقد مكن هذا الاستخدام للسيارة من استخدام الكثير من مراعي المنطقة الشمالية من المملكة العربية السعودية في

سنوات وفرة الأمطار بها بواسطة قبائل كثيرة من خارج هذه المنطقة وذلك مثل قبائل الدواسر وبنو مرة وعتيبة وقحطان والرشايدة .

يستدل من الوصف السابق أن هذا الشكل من نمط حياة شبه الاستقرار يعتمد على حركة سريعة وبعيدة المدى في نفس الوقت والذي يهدف فيه إلى أخذ القطعان إلى بقاع محددة . ولكن لا يتطلب هذا الشكل إلا أخذ الأذن من تحرك الأسر البدوية والتي تنتقل مع القطعان في جزء من السنة فقط . ولا تشارك هذه الأسر - ويشمل هذا رؤوسها - إلا بجزء صغير من النشاط الرعوي الذي أصبح يوكل به الآن إلى رعاية مستأجرين . ويضاف إلى هذا أن بعض أصحاب القطعان التي شوهدت في منطقة حائل أفادوا بأنهم عندما يعودون إلى ديارتهم الأصلية مع قطعانهم فإنهم يعتمدون كثيراً على الشعير كعلف لهذه القطعان . كما أفادوا أيضاً أن هذه القطعان لا تؤخذ بعيداً عن مقر الأسرة أو أن حركتها تقل كثيراً عما كانت عليه القطعان في السابق . ويجب الإشارة إلى أن هذا الشكل أقل انتشاراً عن الشكل الأول لنمط حياة شبه الاستقرار ويبدو أن مزاولته تقتصر على الأفراد الأكثر مقدرة من الناحية المالية .

ساهم في انتشار هذا الشكل بالمملكة العربية السعودية بشكل عام توفر عدة عوامل مساعدة أولها اتساع رقعة هذه الدولة . فقد أدى هذا الاتساع إلى توفر بيئات رعوية مختلفة يمكن أن يستغل أي منها في وقت مختلف من السنة عن أوقات استغلال البيئات الرعوية الأخرى . ويشكل قرار إلغاء نظام الحمى في عام ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م العامل الثاني الذي ساهم في انتشار هذا الشكل . فقد مكن هذا القرار من فتح ديرة كل قبيلة للاستخدام بواسطة قبائل أخرى من خارج ديارتها . وقدم كل من هذين العاملين قيمة جديدة للسيارات من حيث منفعتها لوظيفة الرعي البدوي حيث إنها مكنت الكثير من البدو من اختراق مناطق جديدة لم يكونوا قادرين على استغلالها من قبل . ولا شك في أن توسع شبكة المواصلات البرية قد ساعد على الوصول إلى هذه المناطق الجديدة . ويشكل توفر موارد جديدة للشرب في صفة آبار حكومية في هذه المناطق عاملاً رابعاً ساهم في ظهور هذا الشكل .

يتضح إذاً أن النمط الحديث لوظيفة الرعي البدوي لا يشبه من حيث الحركة والترحل الموسمي النمط التقليدي لهذه الوظيفة . فيتصف هذا النمط بأنه أقل حركة عن النمط التقليدي وأن الترحل للبحث عن المرعى ضمن هذا النمط يشكل تحركاً مؤقتاً فقط للقطعان والأسر البدوية صاحبة هذه القطعان . ويضاف إلى هذا أن أساليب استخدام الموارد الرعوية وحجم القطعان وتركيبها ودور الأسرة في عملية الإنتاج تجعل هذا النمط الحديث أبعد ما يكون عن النمط التقليدي لوظيفة الرعي البدوي . ولعل ما يعزز هذه الفكرة هو أن النمط أصبح يمارس الآن بواسطة الكثيرين من المستثمرين الذين يعملون بوظائف مختلفة وينظرون إلى تربية الحيوانات كجزء من نشاطهم التجاري . فقد شوهد في منطقة حائل عدد من القطعان التي يملكها تجار من الرياض ومنطقة القصيم والذين أرسلوها مع رعاة مستأجرين .

النتائج التي ترتبت على ظهور نمط حياة شبه الاستقرار

ترتب على ظهور نمط حياة شبه الاستقرار بروز عدة نتائج اقتصادية وبيئية واجتماعية وقد تمت الإشارة من قبل لبعض هذه النتائج والتي تمثلت في المزايا الاجتماعية ومزايا التمتع بالخدمات بواسطة البدو الذين تقبلوا نمط حياة شبه الاستقرار . ويمكن هنا إيجاز بعض النتائج الأخرى فيما يلي :

١ - حدث هنالك تغير في حجم وتركيب القطعان التي يربيهها البدو الذين تقبلوا نمط حياة شبه الاستقرار . فقد أدت عوامل توفر مصدر قريب للمياه وسهولة نقلها باستخدام السيارات وتوفير أعلاف بأسعار رخيصة نسبياً حتى وقت قريب إلى إمكانية زيادة أعداد الحيوانات التي يربيهها هؤلاء البدو . وقد حدثت هذه الزيادة بشكل عام في أعداد الأغنام . ويتقابل هذه الزيادة في أعداد الأغنام نقص في أعداد الجمال التي يربيهها هؤلاء البدو . وحدث هذا بسبب انخفاض المنفعة الاقتصادية للجمال وعدم القدرة على العناية بها خصوصاً وأن عملية نقل الجمال إلى مناطق بعيدة للرعي أصبحت تتطلب وقتاً وعبئاً كبيراً (14 . Economides, 1987 ; 11 ; Finan et al., 1995) . ويلاحظ أنه بالنسبة للأغنام أن البدو شبه المستقرين في المناطق الشمالية يميلون إلى اقتناء صنف أغنام

النعيمي وهو صنف تم إدخاله حديثاً . وتقبل البدو هذا الصنف بسبب قدرته الكبيرة على التأقلم مع نمط حياة شبه الاستقرار . وقم تم إدخال هذا الصنف في نفس الوقت الذي قلت فيه أعداد صنف الأغنام النجدية ضمن قطعان البدو شبه المستقرين . كما يلاحظ أن عدداً كبيراً من هؤلاء البدو أصبحوا يربون أعداداً أكبر من الماعز ضمن قطعانهم وذلك بسبب ملاءمته لنمط حياة شبه الاستقرار وبسبب سهولة تسويقه ، وذلك حسب إفادة رؤوس الأسر البدوية الذين تمت مقابلتهم في منطقة الدراسة .

وتشير إحدى الدراسات (Abdalla et al., 1990, 10-11) إلى أن الزيادة في حجم القطعان تستند على مبدأ اقتصادي مهم وهو اقتصاد الحجم "Economy of scale" . فقد أدى توفر علف رخيص نسبياً إلى جعل تكاليف السيارات واليد العاملة أهم العوامل في تكاليف الإنتاج ولهذا فإن زيادة حجم القطعان يؤدي إلى جعل استخدام هذين العاملين أقل كلفة عن حالة إذا كان حجم القطيع صغيراً .

٢ - أدت الزيادة في أحجام القطعان إلى زيادة الوحدات الحيوانية عن الطاقة الرعوية المسموح بها للمراعي . كما أن محدودية المسافة التي تنتقل بموجبها هذه القطعان يومياً عن مناطق سكنى البدو أدت إلى زيادة الإضرار بالغطاء النباتي في المناطق المحيطة مباشرة بمناطق السكن هذه . ونجد أيضاً أن تكديس أعداد كبيرة من الحيوانات حول مواقع السقيا المعدة لها أدى إلى إزالة الغطاء النباتي تماماً من المناطق المحيطة بمواقع هذه الآبار . وقد لوحظ هذا التدهور في الغطاء النباتي وشُخصت أسبابه منذ بداية الخمسينيات في كثير من المناطق الشمالية (Cheney, 1958, 170; Heady, 1972, 688 and 689) . كما يلاحظ حالياً ولنفس الأسباب السالف ذكرها (Finan et al., 1995, 20) .

لا يقتصر هذا التدهور في الغطاء النباتي على حالة المملكة العربية السعودية فقط فقد لوحظ هذا التدهور في مناطق أخرى من العالم حيث يحدث تجمع لأعداد كبيرة من البدو مع حيواناتهم في مستوطنات خاصة بهم (Johnson, 1993, 57) وحيث مواقع الآبار المخصصة لسقيا حيوانات هؤلاء البدو (Boudet, 1973, 33; Khogali, 1981, 305) .

٣ - أدت الحركة المحدودة للحيوانات وما تلى هذا من تدهور في حالة المرعى في

المنطقة المحيطة بموقع السكن مباشرة إلى زيادة الاعتماد على الشعير لسد حاجات هذه الحيوانات من الأعلاف (Finan et al., 1995, 10-11) . وتكشف الكثير من الدراسات أن الشعير أصبح يشكل نسبة عالية من الحاجات الغذائية للحيوانات بسبب عدم قدرة المراعي المجاورة على سد هذه الحاجات وبسبب عدم أخذ هذه الحيوانات من قبل أصحابها إلى المراعي البعيدة . وتشير إحدى هذه الدراسات (Abdalla et al., 1990, 5) إلى أن درجة الاعتماد على الشعير في هذه الحالة تتراوح بين ٣٦٪ و ٨٩٪ من احتياجات الحيوانات السنوية للغذاء .

٤ - أدت حياة شبه الاستقرار والاحتكاك باجماعات المستقرة بالإضافة إلى توفر دخل إضافي إلى إحداث تغير في أنماط الاستهلاك لدى البدو بشكل عام . ويلاحظ هذا التغير في طبيعة المواد الاستهلاكية ، من غذائية وغيرها ، والتي يتحصلون عليها بالشراء من خارج اقتصاد الرعي البدوي (Habib, 1995, 18 ; Cole, 1975, 106 - 7) .

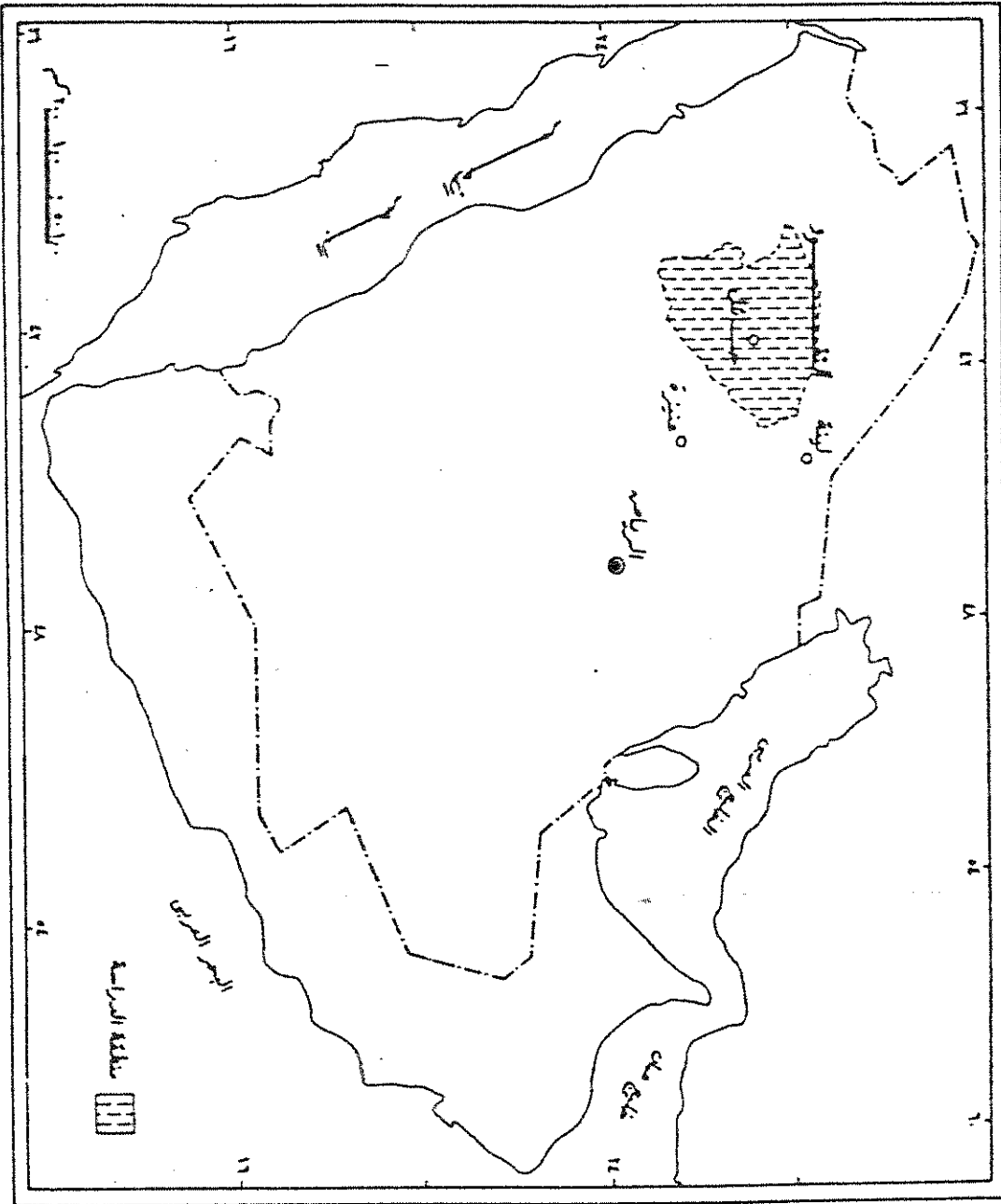
٥ - تسببت حياة شبه الاستقرار في ظهور الكثير من المشاكل البيطرية التي تؤثر سلباً على صحة الحيوانات التي يرببها البدو شبه المستقرين . فقد أدى تجمع أعداد كبيرة من الحيوانات في مناطق صغيرة ، حول المستوطنات ومواقع الآبار ، إلى سرعة انتشار الأمراض بين هذه الحيوانات الأمر الذي أدى إلى زيادة حالات النفوق بينها (Heady, 1972, 688) . ويضاف إلى هذا أن محدودية حركة الحيوانات يؤدي إلى احتمالية عدم حصول هذه الحيوانات على بعض احتياجاتها من معادن وعناصر غذائية أخرى مهمة نصحتها العامة . وقد أثبت الباحث وجود مثل هذا الاحتمال في منطقة الدراسة وذلك كما سناقش في حينه .

الإطار الطبيعي والبشري لمنطقة الدراسة

الإطار البشري

تقع منطقة الدراسة في إمارة منطقة حائل ضمن الإقليم الذي يعرف باسم المنطقة الشمالية (الشكل رقم ١) والذي يوصف بأنه يحتل الدرجة الأولى في المملكة العربية

محل رقم ١١١ موقع منطقة الدراسة



المصدر : إدارة المساحة العسكرية رقم ١٤٠٧

السعودية من حيث نسبة البدو الرحل الذين يقطنونه إلى مجموع سكانه . وبالرغم من انخفاض هذه النسبة مؤخراً إلا أن طابع البداوة الرعوية لا يزال واضحاً في هذه المنطقة . وتتصف هذه المنطقة أيضاً بانخفاض الكثافة السكانية بها وقلة عدد السكان بشكل عام حيث يقطن بها حوالي ٣, ٨٪ فقط من مجموع سكان المملكة (١٠) .

ويمكن الاسترشاد بأرقام تعداد عام ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م في وضع تقدير مفاده أن ما يزيد عن ٥, ١٢٪ من سكان منطقة حائل الإدارية ، والتي تقع فيها منطقة الدراسة ، يمكن تصنيفهم على أنهم من سكان البادية أو أنهم يزاولون وظيفة الرعي البدوي بشكل أو بآخر (١١) .

ويتصف نمط توزيع السكان في حائل بعدم انتظامه . فطبقاً لنتائج نفس التعداد فإن مدينة حائل وحدها تضم حوالي ٤٣٪ من السكان (١٢) بينما يتوزع الباقي على مدن ومستوطنات صغيرة . وتعكس كثير من هذه المستوطنات الصغيرة طابع البداوة الرعوية حيث يستقر الكثير من البدو شبه المستقرين مع أغنامهم وإبلهم بها أو في محيطها . وكانت بعض هذه المستوطنات ، مثل الزبيره وقياء وعريجاء والعدوه ، أصلاً مواقع لآبار كان يقضي بها البدو فصل القيظ ولكنها تحولت إلى مستوطنات بفضل استقرار الكثير من البدو الرحل فيها .

تشغل قبيلة شمر بعشائرها المختلفة معظم أجزاء منطقة حائل بينما تقطن قبيلة الرشايذة في الأطراف الغربية منها . وتحمل بعض عشائر قبيلة حرب الجزء الشرقي الأقصى من المنطقة والذي يكون النصف الشمالي من هضبة التيسية وبعض العروق الرملية التي تمتد جنوباً من النفوذ الكبير موازية لهذه الهضبة . ويعتبر وجود عشائر حرب حديثاً في هذه المنطقة من حائل بالذات . فمن المؤكد أن عشيرة الوهوب التي تقطن في هضبة التيسية قد بدأت سكنى هذه المنطقة بعد معركة يوم الفلج وذلك بموافقة أمير منطقة حائل السابق عبدالعزيز بن مساعد (١٣) .

الإطار الطبيعي

تمتد منطقة حائل إلى حوالي ٤٠٠ كيلو متر من الشمال إلى الجنوب وحوالي ٥٠٠

كيلو متر من الشرق إلى الغرب . وتبلغ المساحة الكلية لها حوالي ١١٣٠٠٠ كيلو متر مربع (وزارة الشؤون البلدية والقروية، ١٩٨٣، ص ٣٥) . وتتصف منطقة حائل من حيث التضاريس بأنها هضبة متوسطة الارتفاع يتراوح ارتفاعها بين ٨٠٠ و ٩٠٠ متر فوق سطح البحر . وتنتشر على سطح هذه الهضبة مجموعات من الكتل الجبلية المنعزلة مثل جبلي أجا وسلمى وجبال الرمان . كما تتوفر هذه الهضبة على بعض الحواف الصخرية وذلك مثل هضبة التيسية التي تكون الجزء الشرقي من المنطقة . ويتكون الجزء الشمال من حائل من مسطحات رملية هي جزء من تكوينات النفوذ الكبير . ويمتد من هذه التكوينات بعض العروض الرملية التي تتوغل جنوباً لتكون شريطاً يمتد بمحاذاة هضبة التيسية من الغرب (انظر الشكل رقم ٢) .

يتكون نظام التصريف المائي في منطقة حائل من عدد من الأودية والتي يصب بعضها في مجرى وادي الرمه . كما توجد الكثير من المنخفضات والتي تتصرف إليها مياه الأمطار مشكلة ما يسمى «فيضات» . وتتواجد هذه الفيضات بأحجام مختلفة في منطقة حائل حيث يعرف كل حجم منها بمسمى خاص . وتشكل مناطق التصريف هذه - سواء أكانت أودية أو فيضات- بيئات رعوية مناسبة تحتوي على تربة جيدة وحياة نباتية غنية .

المناخ

يتصف مناخ حائل بأنه قاري جاف . وتنخفض معدلات الرطوبة النسبية صيفاً ولكنها ترتفع بصورة ملحوظة في أشهر الشتاء . وتتراوح كمية الأمطار الساقطة على حائل بين ٧٠ و ١٠٠ ملم سنوياً . ويلاحظ هنا أن معدلات هذه الأمطار تتناقص من الشرق إلى الغرب . وتبلغ هذه المعدلات أقصاها في منطقة تتواجد على شكل حزام يمتد من جنوب شرقي مدينة حائل إلى الشمال الشرقي من المنطقة (المرجع السابق) .

الغطاء النباتي

أدت الظروف المناخية المشار إليها أعلاه إلى ظهور غطاء نباتي يتصف بقلة كثافته . ونجد من ناحية أخرى أن عامل عدم الانتظام في توزيع الأمطار بمنطقة حائل ينعكس على الغطاء النباتي في المنطقة والذي يتصف بتركزه في بقاع دون أخرى . كما نجد أن

توفر حائل على بيثتين إنتاجيتين رئيسيتين وبيئات أخرى ثانوية ، كما سيوصف في الصفحة التالية ، أدى إلى وجود تباين في الغطاء النباتي بين هاتين البيثتين وذلك فيما يختص بالتنوع والفصلية .

البيئات الرعوية في حائل

أدى اتساع منطقة حائل وتنوع مظاهر السطح والتربة بها وكذلك وجود تنوع مناخي إلى ظهور بيئات إنتاجية مختلفة . ولهذا التنوع البيئي قيمة اقتصادية وذلك من وجهة نظر اقتصاد الرعي البدوي . فقد أدى من جهة إلى توفر مصادر أعلاف للحيوانات على مدار السنة تقريباً . كما أدى من جهة أخرى إلى إمكانية تربية أنواع مختلفة من الحيوانات والتي يمكن لأي نوع منها أن يستغل بيئة مختلفة عن الأنواع الأخرى التي يعيش معها في نفس الوقت . ويمكن التمييز هنا بين بيثتين رئيسيتين وهما بيئة الدكاكة أو النفوذ والجلد وبيئة ثانوية هي بيئة الخيران . وتمكن الباحث من التعرف على هذه البيئات من مشاهداته الحقلية ومن إقادات بدو منطقة الدراسة .

١ - بيئة الدكاكة : وتشكل هذه البيئة من مناطق التكوينات الرملية في النفوذ الكبير الواقع إلى الشمال وفي العروق الرملية الممتدة منها والواقعة غرب هضبة التيسية . كما تتمثل في رمال الدهناء التي تقع على الأطراف الشرقية لحائل . وبالرغم من المظهر المقفر لبيئة الدكاكة إلا أن هذه البيئة تحمل إمكانات رعوية جيدة في أوقات سقوط الأمطار عليها . فالقدرة الكبيرة للرمال على امتصاص مياه الأمطار تؤدي إلى قلة الجريان السطحي وبالتالي إلى اختراق هذه المياه للرمال بحيث يجري تخزينها كلها . ويؤدي هذا إلى ظهور حياة نباتية غنية في هذه البيئة يصفها أحد الباحثين (Heady, 1972) (687) بأنها أغنى مما يمكن أن يتوقع من كميات الأمطار القليلة التي تسقط عليها سنويا .

٢ - بيئة الجلد : هذه البيئة هي الأكثر انتشاراً في منطقة حائل . وتتكون من السهول الحصوية ومناطق الحواف الصخرية والمناطق الجبلية الأخرى . وقد أدى وجود مناطق مرتفعة إلى إيجاد ظروف تعمل على ارتفاع نسبي في معدلات الأمطار السنوية بهذه المناطق . وتنعكس هذه المعدلات العالية نسبياً في وجود حياة نباتية غنية خصوصاً

في المنطقة المحيطة بمدينة حائل وفي منطقة هضبة التيسية . وتشمل هذه البيئة أيضاً مناطق الأودية والفيضات المختلفة التي تشكل مناطق لتجمع المياه والتي تحتوي على تربيات حقيقية . ولذلك فإن مناطق التصريف هذه من بيئة الجلد تختص بإمكانياتها العالية من حيث توفرها على حياة نباتية غنية وموارد مياه باطنية وسطحية تجعلها مناطق مناسبة لتجمع البادية في فصل الجفاف . وتصنف هذه البيئة نفسها إلى بيئتين ثانويتين هما الظهرة والقاع . وتمثل بيئة القاع مناطق مجاري الأودية بينما تمثل بيئة الظهرة المناطق المرتفعة المحيطة بالأودية . ويفضل البدو الإقامة في مناطق بيئة القاع بسبب غناها الأكثر في الحياة النباتية .

٣ - بيئة الخيران : تتكون هذه البيئة من مناطق مجاري الأودية التي تغطيها رمال وتتصف بأن مياه الأمطار تمكث بها لفترة طويلة وذلك لأنها تغور فيها سريعاً حال نزولها لتستقر فوق أرضية الوادي التي تشكل في كثير من الحالات طبقة قليلة النفاذية للمياه . وتقدم هذه الظروف فرصة جيدة للحياة النباتية في أن يستمر نموها الخضري حتى مع قدوم فصل الصيف . وتنتشر في هذه البيئة لهذا السبب كثير من النباتات مثل السعدان والتي تبدأ نموها في هذا الفصل . كما يتوفر في بيئة الخيران كثير من النباتات الأخرى ذات القيمة الرعوية الجيدة التي تنمو في بيئتي الدكاكة والجلد وذلك مثل العرفج والأرطة والتش والمكر والنصي .

شكلت صفات المناخ والتنوع البيئي في منطقة حائل ظروفًا لتوفر موارد طبيعية تناسب وظيفة الرعي البدوي . وقد استغلت المجموعات البدوية المختلفة في المنطقة هذه الموارد منذ فترة تاريخية بعيدة لإقامة نظام ناجح لهذه المهنة . وقد وظفت ميزات الحركة والهجرة الفصلية ، التي تقوم على أساسها وظيفة الرعي البدوي لأجل تسهيل استغلال هذه الجماعات للغطاء النباتي الذي يتصف في المنطقة بضعف كثافته وتبعثره على مناطق شاسعة . كما وظفت هذه الميزات لتمكين نفس هذه الجماعات للتغلب على عامل التباين الموجود بين بيئتي الدكاكة والجلد في نوعية وفصلية توفر الغطاء النباتي . وتم هذا الاستغلال بكفاءة ونجاح يفوق إمكانات أي وظيفة اقتصادية أخرى على استغلال

الغطاء النباتي المتوفر في المنطقة . ويمكن أن نتعرف على مدى هذا النجاح من حقيقة شهرة منطقة حائل بشكل خاص والمنطقة الشمالية بشكل عام كإقليم تخصص في تصدير الخيول والضأن والجمال وإقليم تميز أيضاً في إنتاج سلالات معروفة منها . ونجد أنه بالرغم من إمكانيات التأقلم هذه إلا أن وظيفة الرعي البدوي فشلت بشكل عام في الإبقاء على نمطها التقليدي . فلم تستطع هذه الوظيفة ، وذلك كما ذكر سالفاً في بداية هذا البحث ، أن تستمر بدون أن تمر بتغيرات فرضتها ظروف التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي جاءت مع بداية القرن . ويمكن أن نتعرف عن كثب على أسباب ومظاهر هذه التغيرات عن طريق دراسة هذه التغيرات بين جماعة بدوية صغيرة تقطن منطقة التيسية التي تقع في الطرف الشرقي لأمانة منطقة حائل .

التحول إلى نمط حياة شبه الاستقرار في منطقة التيسية

تقع منطقة التيسية في الطرف الشرقي من أمانة منطقة حائل . وتشكل هذه المنطقة في معظمها من هضبة منخفضة الارتفاع هي هضبة التيسية . ويقطع هذه الهضبة عدة أودية أهمها الحسكي وخثال والتي تتجه من الغرب إلى الشرق . وفيما عدا الجزء الجنوبي فإن هذه الهضبة تحيط بها تكوينات رملية تتمثل في صحراء النفوذ من الشمال وصحراء الدهناء من الشرق وعرق المظهور ، والذي هو امتداد جنوبي لصحراء النفوذ ، من جهة الغرب (١٤) .

تقدم منطقة التيسية مثلاً جيداً عن وظيفة الرعي البدوي والتغيرات التي طرأت عليها في منطقة حائل بشكل خاص والمنطقة الشمالية بشكل عام . فالظروف الطبيعية والسكانية في منطقة الدراسة تتشابه كثيراً مع نفس الظروف في باقي منطقة حائل . فإضافة إلى تشابه ظروف المناخ والغطاء النباتي الطبيعي فإن منطقة الدراسة تتمثل فيها البيتان الرعويتان الرئيسيتان ، وهما بيئة الدكاكة وبيئة الجلد ، اللتان تتواجدان في منطقة حائل . كما تتواجد بيئة الخيران في مناطق عدة من هضبة التيسية مثل الرملة والرميلان . ونجد من ناحية الظروف البشرية تشابهاً كبيراً بين المنطقتين . فتؤكد نتيجة

المقابلات التي أجراها الباحث مع رؤوس الأسر البدوية في منطقة حائل بشكل عام على وجود تشابه كبير في عوامل ومظاهر التغيير في وظيفة الرعي البدوي في كلتا المنطقتين .

النمط التقليدي للبدو الرعوية في منطقة الدراسة حتى عام ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م (١٥)

يتألف سكان منطقة الدراسة من عشائر مختلفة من قبيلة حرب . ويشكل أفراد عشيرة الوهوب الغالبية العظمى من هؤلاء السكان . وقدمت هذه العشائر إلى المنطقة من القصيم من مكان بالقرب من منطقة الأسياح ، ويمكن وصف سكان هذه المنطقة بأنهم كانوا أساساً رعاة جمال . فتشير نتائج الدراسة ، التي سيتم تحليلها لاحقاً ، إلى أن متوسط الملكية الفردية من الجمال لديهم كانت عالية ، الأمر الذي جعلهم أكثر غنى نسبياً عن غيرهم من البدو . ويضاف إلى هذا أن الكثير منهم كانوا يمتلكون سابقاً أعداداً كبيرة من الضأن بالإضافة إلى ما امتلكوه من الجمال . ولا بد أن عدد سكان منطقة الدراسة كان أكبر مما هو عليه في الوقت الحاضر . فقد أفاد الكثير ممن تمت مقابلتهم أن عدد الأسر التي كانت تقضي فصل التقيظ عند آبار الزبيرة كان يتراوح بين ٣٠٠ - ٥٠٠ أسرة بدوية . وكان عدد من هذه الأسر يفضل في بعض السنوات قضاء هذا الفصل في بقاع أخرى من منطقة الدراسة حيث كانت توجد آبار كمنطقة وادي الحسكي ومنطقة الحفنة .

وقد استغل هؤلاء السكان التنوع البيئي المتوفر في منطقتهم استغلالاً جيداً . وساعدهم في هذا أن سكنهم على أطراف المنطقة الفاصلة بين بيئتي الدكاكة والجلد جعلت من غير الضروري عليهم أن يبتعدوا لمسافات طويلة خلال الهجرة الفصلية المعتادة التي كانت تتم لأجل استغلال التغيرات الفصلية في الغطاء النباتي بين بيئتين مختلفتين . وقد يكون هذا هو سبب نجاحهم في الاحتفاظ بأعداد كبيرة من الضأن في نفس الوقت الذي تخصصوا فيه بتربية الجمال .

شكل موقع الزبيرة المقر الصيفي الأساسي للسكان في منطقة الدراسة وذلك بسبب توفره على مياه باطنية قريبة من السطح . وقد استغل السكان هذه المياه بحفر آبار

سطحية «قلبان» لم تزد أعماقها عن عشرة أمتار . ولم تكن حياة هؤلاء خلال إقامتهم في المقر الصيفي بدون مشاكل أو معاناة . فقد أدى تجمع عدد كبير من الأسر البدوية في منطقة صغيرة حول آبار الزبيرة إلى كثير من المضايقات والمشاحنات خصوصا في فترات نقص مياه الآبار . كما تعرض الكثير من الحيوانات للمتفوق بسبب ضعفها نتيجة لتدهور الغطاء النباتي في المنطقة المحيطة بآبار الزبيرة . وتعرض البشر أيضا بسبب الازدحام خلال تلك الإقامة لعدد من الأمراض المعدية منها الرمد والجذري والحصبية . وكانت حركة الترحل الفصلي لهؤلاء السكان تبدأ مع موسم الأمطار من قاعدتهم عند آبار الزبيرة وأواسط وادي الحسكى إلى مناطق سطح هضبة التيسية «الظهرة» وإلى مناطق الدكاكة المحاذية لهم وخصوصا الدهناء ومناطق عرق المظهور وشامة زرود وشامة الأكباد . وقد اضطر هؤلاء مع ذلك إلى الهجرة لمناطق بعيدة جريا وراء مناطق الأمطار وذلك خلال سنوات الجذب التي مرت على منطقة الدراسة . فقد هاجرت أعداد كبيرة منهم حتى منطقة الطائف وبلاد فحطان جنوبا وحتى سكاكا والأردن شمالا خلال تلك السنوات .

فقد سكان منطقة الدراسة أعدادا كبيرة من جمالهم وأغنامهم خلال فترات الجذب العنيفة التي مرت على المنطقة . وتسببت هذه الكوارث مع عوامل أخرى في إحداث تغيرات عميقة الأثر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لهؤلاء السكان وذلك كما سيفصل لاحقا . وأفاد أكثر من فرد من سكان المنطقة أن تحول السكان إلى نمط حياتهم الحالي ، أي نمط حياة شبه الاستقرار ، كان سببه فقدهم لكل أو معظم جمالهم خلال فترات تلك الكوارث .

نمط حياة شبه الاستقرار في منطقة التيسية

بالرغم من التغير الذي حدث في حياة الأسر البدوية بمنطقة الدراسة إلا أن حرفة تربية الحيوانات لا تزال تشكل المهنة الأساسية لمعظم السكان في هذه المنطقة وذلك حسب ما كشف عنه المسح الحقلية . على أن عدد الأسر البدوية في هذه المنطقة لا يتجاوز مائتي أسرة وذلك بسبب الهجرة . وقد كشف نفس المسح الحقلية على أن ما لا

يزيد عن مائة وخمسة وعشرين من هذه الأسر تعيش في خيام . ويقطن باقي هذه الأسر في بيوت داخل مستوطنة الزبيرة ، بينما ، يقوم بالإشراف على حيواناتها في خارج المستوطنة رعاة مستأجرون . وتقيم نسبة كبيرة من الأسر التي تعيش خارج هذه المستوطنة في المناطق المحيطة بها وفي منطقة الحوض الأوسط لوادي الحسكي .

تتصف مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأسر التي تقطن في منطقة الدراسة باختلافها عن المظاهر التي كانت تتصف بها المجتمعات البدوية في شكلها التقليدي . فبالرغم من أن تربية الأنعام تشكل المهنة الأساسية لهذه الأسر إلا أنها تمارس هذه المهنة في الوقت الحالي بأسلوب يختلف عما اعتادت عليه سابقاً . فالأسلوب الذي تتبعه

حالياً في استغلال الموارد يعتمد على حركة يومية قصيرة تؤخذ بموجبها الحيوانات إلى المرعى القريب المحيط بمكان إقامة هذه الأسر فقط وذلك لمسافة لا تزيد عن ٣ - ٥ كيلو مترات . ويزاول هذا الأسلوب على مدار السنة بدون أي اعتبار لتقلب الفصول وتغير حالة المرعى . ويعني هذا أن هذه الأسر لا تقوم أبداً بأي ترحل فصلي مع حيواناتها .

ولا يمثل ما ذكر أعلاه الاختلاف الوحيد الذي يميز الجانب المهني لنمط حياة شبه الاستقرار في منطقة الدراسة عن النمط التقليدي لوظيفة الرعي البدوي . فكما يشير الجدول رقم (١) فإن عدد الوحدات الحيوانية التي تمتلكها أي أسرة في الوقت الحالي يفوق في المتوسط ما كانت تمتلكه عندما كانت تراول ووظيفة الرعي البدوي بشكلها التقليدي . وكشفت نتيجة العمل الحقلّي أن عدداً من الأسر في عينة الدراسة يمتلك قطعاناً من الأغنام يصل حجم كل منها من ألف إلى ألف وخمسمائة رأس من الضأن . ويكشف نفس هذا الجدول اختلافاً آخر بين النمطين المذكورين وهو الانخفاض في أعداد ما تمتلكه هذه الأسر من الجمال والذي يقابله من الناحية الأخرى ارتفاع أعداد الضأن التي تمتلكها هذه الأسر بمقدار الضعف عما كانت تمتلكه سابقاً . كما أنه على عكس ما كان سابقاً - وذلك كما يكشف نفس الجدول من تملك الجميع للجمال - فإن عدداً كبيراً من الأسر لا تمتلك في الوقت الحالي أي جمال هذا في نفس الوقت الذي

الجدول رقم (١)

متوسطات عدد الحيوانات من حيث النوع والوحدات الحيوانية لأسر عينة الدراسة *

النوع		متوسط العدد لكل أسرة سابقا	الأسر التي امتلكت هذا النوع سابقا	متوسط العدد لكل أسرة حاليا	الأسر التي تمتلك هذا النوع حاليا
		العدد	%	العدد	%
الجمال		٥٤	٣١	٢٥	٦٥
الضأن		٢١٥	٣٠	٤٤٩	١٠٠
الماعز		١٤	١٠	٦٤	٨٤
مجموع متوسط الوحدات الحيوانية لكل أسرة **		١٠٠		١٢٧	

* تتكون عينة الدراسة من واحد وثلاثين أسرة .

** تتألف الوحدة الحيوانية من جمل واحد أو خمسة رؤوس من الضأن أو من الماعز .

المصدر : تم إعداد هذا الجدول بناء على بيانات الاستبيان الذي قام به الباحث أثناء عمله الحقلية في منطقة الدراسة خلال صيف ١٩٩٥م

أصبحت فيه غالبية الأسر تربي الماعز ، وذلك بعد أن كان هذا الأمر يقتصر سابقا على عدة أسر فقط . وسوف تتم معالجة أسباب هذا التغيير في الجزء التالي من هذا البحث .

ويجب التأكيد على أن الرغبة في زيادة أعداد الحيوانات تستند على مبررات اقتصادية . فالدخل الضروري للأسر البدوية في منطقة الدراسة لا يمكن أن يوفره العدد الذي اعتادت هذه الأسر على امتلاكه سابقا . وقد أفاد عدد كبير من رؤوس الأسر البدوية الذين تمت مقابلتهم في مناطق مختلفة من حائل أثناء فترتي الدراسة الحقلية الأولى والثانية أن الحد الأدنى من الضأن الذي يمكن أن يوفر دخلاً يفي بحاجات أي أسرة بدوية في الوقت الحالي يجب أن لا يقل عن ٢٥٠ رأساً ويفضل أن يكون هذا العدد بين ٣٥٠ - ٤٥٠ .

تعتبر الإقامة في موقع ثابت أو شبه ثابت لا يتغير إلا على فترات متباعدة من أهم الخصائص التي تتصف بها الأسر البدوية في منطقة الدراسة . فقد كشفت نتيجة الاستبيان أن فترة الإقامة لهذه الأسر في أي مكان قد تمتد إلى سنة كاملة أو أكثر من سنة عند أغلب هذه الأسر . وقد أفاد أحد رؤوس هذه الأسر أن مكان مخيمه الذي تمت فيه المقابلة لم يتغير أبداً لمدة خمس عشرة سنة !

ويحدث التغيير في مكان الإقامة لهذه الأسر في غالب الأمر ، لأسباب صحية أساسها الرغبة في الانتقال إلى مكان آخر نظيف . وقد تبين أن قلة تمثل ٢٩٪ (تسع أسر) ، من أسر عينة الدراسة والتي تسكن في خيام خارج مستوطنة الزبيبة ، تقوم بتغيير مكان الإقامة لأجل الاستفادة من مرعى جديد بدلاً من المرعى المحيط بمكان الإقامة القديم والذي تدهورت حالته الإنتاجية . وتجب الإشارة إلى أنه حتى في هذه الحالة فإن تغيير مكان الإقامة لا يحدث إلا على فترات متباعدة يفصل بين كل منها ٢ - ٥ أشهر عند بعض الأسر أو ١ - ٣ سنوات عند البعض الآخر (انظر الجدول رقم ٢) .

بالإضافة إلى طول فترة الإقامة بأي مكان فإن الحياة الاجتماعية للأسر البدوية في منطقة الدراسة تتصف أيضاً باختلافها في جوانب أخرى عن النمط التقليدي لحياة البداوة الرعوية . ومن أهم هذه الجوانب هو ميل هذه الأسر للسكن في مواقع متقاربة في نفس الوقت الذي تتوفر فيه مساحات كبيرة تتركها هذه الأسر شاغرة على أطراف مناطق تجمعها . ونجد هذا الميل خصوصاً في المناطق المحيطة بمستوطنة الزبيبة ومنطقة أخوض الأوسط لوادي الحسكي . ونجد في هذه المنطقة الأخيرة بالذات أن المسافة التي تفصل بين أي أسرة وأخرى لا تتعدى ٢ - ٣ كيلو مترات وحيث نجد أن ما يزيد على ٦٠ أسرة بدوية تقيم في خيام بهذا الجزء من الوادي والشعاب المتصلة به . وليس من النادر أن نجد أسرتين متقاربتين بحيث لا يفصل بين مكان إقامتهما أكثر من أربع مائة متر . ويمكن تفسير هذا بأن الأسر التي تسكن هذا الجزء من الوادي يتسبب أغلبها إلى عشيرة واحدة هي عشيرة الوهوب .

الجدول رقم (٢)

أشكال الإقامة للأسر شبه المستقرة في منطقة الدراسة وأسباب النقل

المجموع	يسكن في الزبيرة*	أكثر من ثلاث سنوات	سنة إلى ثلاث سنوات	٢ - ٥ أشهر	الفترة الزمنية التي تقضيها الأسرة في أي موقع
					أسباب النقل :
١٨	صفر	٦	١١	١	صحي
١٣	٤	صفر	٣	٦	لتجديد المرعى
٣١	٤	٦	١٤	٧	عدد الأسر

* تسكن الأسرة في هذه الحالة في الزبيرة ولكن يوجد لها موقع إقامة يسكن به راع مستأجر .

المصدر : تم إعداد هذا الجدول بناء على بيانات الاستبيان الذي قام به الباحث أثناء عمله الحقلية في منطقة الدراسة خلال صيف ١٩٩٥ .

وتسكن جميع الأسر البدوية في خيام تختلف عن الخيام التقليدية للبدو بأنها كبيرة الحجم وبأنها مصنوعة في غالب الأمر من مواد مستوردة . ونجد كذلك أنه على عكس ما كان متوفراً لدى الأسر البدوية قديماً فإن هذه الخيام تغص بأثاث ومواد استهلاكية متنوعة تحتاج إلى شاحنة كبيرة لحملها . وكمثال على هذا فإن كثيراً من هذه الأسر تمتلك ثلاجة تعمل على الغاز . كما أن كل أسرة تخصص أماكن خارج خيامها لحزن الشعير وبرايميل ضخمة لحفظ الماء . وقد أفادت نتيجة العمل الحقلية أن كل أسرة في منطقة الدراسة تمتلك في المتوسط سيارتين أحدهما شاحنة صغيرة «وايت» والأخرى شاحنة لنقل الماء «وايت» . وليس من الغريب أن نجد بعض الأسر التي تمتلك أربعة سيارات شحن من أنواع وأحجام مختلفة .

كشفت نتيجة العمل الحقلية أيضاً أن الأسر البدوية في منطقة الدراسة تعتمد كثيراً على الخدمات الحكومية المجانية مثل التعليم والرعاية الصحية الأولية . كما تعتمد هذه الأسر على مُدخلات إنتاج مدعمة من قبل الحكومة وذلك مثل الشعير أو أنها تعطى مجاناً وذلك في حالة الماء الذي تشربه الحيوانات . وتقدم هذه الخدمات من مستوطنة

الزبيبة التي تمثل المركز الإداري لمنطقة الدراسة . وتجب ملاحظة أن مدى الاستفادة من هذه الخدمات يتفاوت من أسرة لأخرى وذلك لأسباب تتعلق بالمسافة التي تفصلها عن الزبيبة وذلك كما سيفصل لاحقاً . أما بالنسبة للخدمات الحكومية التي لا تتوفر في الزبيبة فإنه يتم الحصول عليها من مستوطنات الأجر وقباء ولينه التي تحيط تماماً بمنطقة الدراسة على بعد ثمانين كيلو متر منها . كما أن هؤلاء السكان يترددون على بريدة وحائل للحصول على الخدمات ذات الرتبة الأعلى . وسوف تجرى لاحقاً مناقشة دور عامل توفر الخدمات والرغبة في استخدامها في تحول الأسر البدوية في منطقة الدراسة إلى نمط حياة شبه الاستقرار .

تضم منطقة الدراسة مستوطنة واحدة هي الزبيبة والتي تمثل المقر الإداري لمركز الزبيبة الذي تقع منطقة الدراسة ضمن حدوده . وتبعد هذه المستوطنة عن أقرب مستوطنة لها بطريق طوله حوالي ثمانين كيلو متراً وغير ممهد في معظم قطاعاته . ولذلك نجد أن سكان هذه المستوطنة ومنطقة الدراسة بوجه عام يعيشون في عزلة كما أنهم يتكبدون مصاريف نقل عالية لأجل الحصول على حاجياتهم من خارج المركز ولبيع فائض إنتاجهم في المناطق التي تقع خارجه (Habib, 1995, 18) .

يقطن مستوطنة الزبيبة عدد يتراوح بين ٨٠٠ و ٩٠٠ نسمة ، وذلك كما تشير نتائج العمل الحقلية . ونجد أن نسبة عالية من سكان هذه المستوطنة تتألف من أسر بدوية تحتفظ بقضعان من الحيوانات خارجها حيث يقوم بالإشراف عليها رعاة مستأجرون من جنسيات غير سعودية . ويتألف باقي سكان المستوطنة من أسر لأصحاب محلات تجارية أو موظفين حكوميين . ويشكل غير السعوديين نسبة تصل إلى ١٠٪ من سكان مستوطنة الزبيبة ويعمل هؤلاء في إدارة محال البيع والخدمات التي تتوفر في هذه المستوطنة .

تحتوي مستوطنة الزبيبة على عدد محدود من الخدمات الحكومية . وتشمل هذه الخدمات مدرستين ابتدائيتين إحداهما للبنين والأخرى للبنات ومدرسة متوسطة للبنين . كما تحتوي هذه المستوطنة على مستوصف حكومي ومكتب إداري تابع لأمانة منطقة

حائل وظيفته متابعة شئون مركز الزبيرة . وتتوفر في هذه المستوطنة أيضا بئر عميقة تابعة للحكومة تعطي مياهها مجانا لشرب الحيوانات التي يربئها البدو في منطقة المركز . أما بالنسبة للخدمات غير الحكومية فإن مستوطنة الزبيرة تحتوي على مستودعين لبيع المواد الغذائية وبعض اللوازم المنزلية . ويضاف إلى هذا بعض الدكاكين الصغيرة التي تتخصص في بيع سلع مختلفة تشمل مواد البناء والشعير ولوازم الرعاة والبن والهيل وبعض الملابس . وتتوفر بالمستوطنة أربعة محال لإصلاح السيارات ومغسلة واحدة للثياب ومحطة بتزين ومطعم يعمل في جزء من النهار فقط ومخبز واحد . ويتضاعف نشاط المحلات المذكورة أعلاه خلال يوم الجمعة الذي يخصص للسوق في كل مركز الزبيرة . ويوم السوق هذا يعني قدوم بائعي الشعير والأعلاف الخضراء كما يعني قدوم خضروات وفواكه طازجة إلى المستوطنة وفتح محل الجزارة الوحيد بها . وتنبغي الإشارة إلى أن جميع الأنشطة الاقتصادية غير الرعوية في مركز الزبيرة تقوم في داخل هذه المستوطنة فقط .

عوامل التغير ومراحلها في منطقة التيسية

يعتبر من الصعوبة بمكان وضع تاريخ محدد لبدء التغير في مجتمع البداوة الرعوية في منطقة الدراسة كما أنه من غير الممكن تخصيص عامل واحد كسبب لهذا التغير . ويمكن مع هذا اعتبار عوامل الجفاف وتوفر فرص عمل خارج نطاق اقتصاد الرعي البدوي والبدء في استخدام السيارات كأسباب مباشرة أدت إلى حدوث التغير .

(١) عامل الجفاف : أدى عامل الجفاف ، والذي ضرب مناطق شمال المملكة العربية السعودية كلها في بداية فترة الخمسينيات ، إلى فقدان بدو منطقة الدراسة معظم أو كل ثرواتهم من الحيوانات . وطبقا لإفادات من تمت مقابلتهم من رؤوس الأسر البدوية لأجل تعبئة الاستبيانات الخاصة بهذا البحث فإن الغالبية منهم فقدوا من ٧٠٪ إلى ٩٠٪ من أغنامهم وإبلهم خلال سنوات فترة الجفاف هذه . وقد ذكر البعض منهم أنهم فقدوا كل حيواناتهم في سنة الجفاف المعروفة باسم سنة الكسوف التي مرت بالمنطقة عام ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م أو في سنوات الجفاف التي تلتها ومنها سنة الجفاف

المعروفة في المنطقة باسم سنة عشيرة . تسبب هذا الفقدان الكبير لقطعان الحيوانات في صعوبة الاستمرار في حرفة الرعي البدوي الأمر الذي دفع الكثير من بدو منطقة الدراسة للهجرة إلى الرياض والمنطقة الشرقية للبحث عن أعمال . وقد تمت عودة هؤلاء المهاجرين بعد أن تحصلوا على دخل مكنهم من شراء قطعان جديدة من الحيوانات مكنتهم من العودة إلى ممارسة حرفة الرعي البدوي من جديد . ومن المؤسف أن البعض من هؤلاء المهاجرين قضوا نحبهم في الرياض والمنطقة الشرقية (١٦) . كما أن البعض منهم فضّل الاستقرار في مناطق هجرتهم على العودة إلى ديارهم .

(٢) عامل الحصول على وظائف : شكلت فرص العمل المشار إليها أعلاه العامل

الثاني الذي تسبب في إحداث تغيير في وظيفة الرعي البدوي بمنطقة الدراسة . ويمكن الافتراض هنا أن الدخل الذي وفرته فرص العمل هذه وصل تأثيره إلى أبعد من مجرد تمكين البدو الذين فقدوا حيواناتهم خلال سنوات الجفاف من شراء قطعان جديدة . فقد مكنتهم هذا الدخل في نفس الوقت من شراء سلع استهلاكية مختلفة . ويمكن الافتراض أيضاً أن الرغبة في الحصول على هذه السلع شجع هؤلاء البدو على أن لا يقتصر بحثهم عن عمل خارج نطاق وظيفة الرعي البدوي فقط على فترات السنين التي قاست فيها منطقة الدراسة من مشاكل الجفاف . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن البحث عن عمل كان يقابله من الجانب الآخر عوامل جذب تمثلت في توفر فرص جديدة للتوظيف خارج نطاق وظيفة الرعي البدوي . وتوفرت هذه الفرص كنتيجة للانتعاش الاقتصادي في المملكة العربية السعودية على أثر انتهاء الحرب العالمية الثانية واستئناف تصدير البترول السعودي بكميات كبيرة في بداية فترة الخمسينيات (١٣٧٠هـ / ١٩٥١م) .

تسببت فرص العمل ، وما تولد عنها من دخل ، في إحداث تغييرات كبيرة في منطقة الدراسة . وتمثلت هذه التغييرات في توسع وتغير في أنماط الاستهلاك وظهور اقتصاد نقدي مما أدى إلى تغييرات اقتصادية واجتماعية ذات أثر عميق في منطقة الدراسة (٣٢) . على أنه ينبغي التأكيد أولاً على التغير المذكور من حقيقة أن منطقة الدراسة أصبحت مقصداً في بداية فترة الخمسينيات ، وربما منذ نهاية فترة الأربعينيات للكثير من التجار المتجولين . وكان يأتي هؤلاء إلى مستوطنة الزبيبة في فصل القيظ وإلى الشعاب

المحيطة بها في فصلي الشتاء والربيع لبيع سلع شملت أقمشة وبنأ وهيلاً إلى السكان . وكانت تتم جميع مبيعات هؤلاء التجار نقداً ، بواسطة ما عرف بالريال الفرنسي ثم الجنيه الجورج في بداية الأمر ، وليس عن طريق المفاضة (١٧) . ولا ريب في أن فرص العمل والحصول على دخل سهل أمر انتشار النقود في المنطقة وبالرغم من أهمية هذه التغيرات إلا أن الأثر الأكبر لفرص العمل خارج نطاق اقتصاد الرعي البدوي تمثل في إحداث نقص في أعداد اليد العاملة المتاحة للعناية بالحيوانات التي تمتلكها الأسر البدوية في منطقة الدراسة . ولكن أدت نفس هذه الفرص من ناحية أخرى إلى تمكين هذه الأسر من شراء سيارات تسهل عليهم مهام وظيفتهم الرعوية . وقد ترتب على النقص في اليد العاملة واستخدام السيارات تغيرات عميقة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لمجتمع البدو في منطقة الدراسة وذلك كما سيناقتش في الصفحات التالية . ويجب التأكيد هنا على طبيعة التغير في الاقتصاد الرعوي في منطقة الدراسة في خلال الفترة التي تلت مباشرة تاريخ بدء توظيف الكثير من بدو المنطقة في أعمال خارج نطاق اقتصاد الرعي البدوي في عام ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م . فلا بد من الافتراض أن العجز في اليد العاملة بسبب هذا التوظيف أجبر الكثير من الأسر البدوية في المنطقة ، والتي فضلت الاستمرار في وظيفة الرعي البدوي ولم تستقر نهائياً ، على اعتماد نظام رعوي أقل حركة في خلال تلك الفترة .

(٣) استخدام السيارات : تنبغي الإشارة هنا إلى تاريخ بدء استخدام السيارات في منطقة الدراسة وذلك لما لهذا التاريخ من دلالات مهمة للتغيرات التي أحدثتها هذا الاستخدام . ويمكن التأكيد على أن استخدام السكان للسيارات بدأ في منطقة الدراسة في عام ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م عندما قاد أحد أبنائها (١٨) سيارته في صيف تلك السنة إلى داخل الزبيرة عندما كانت هذه المستوطنة مجرد مكان يقضي به بدو المنطقة فصل القيظ فقط وكان خالياً من أي مبنى ثابت . وينبغي التأكيد هنا على أن تاريخ بدء استخدام السيارات في منطقة الدراسة جاء بعد أن كانت هذه المنطقة قد شاهدت فعليا في وقت سابق تحول الكثير من الأسر البدوية فيها ، بدءاً من عام ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م وذلك كما تم وصفه في الفقرة السابقة ، من رعاة جمال إلى أصحاب أغنام اتخذوا نظام

رعوي جديد يتصف بأنه أقل حركة وتنقلا عن النظام الرعوي التقليدي السابق . وقد ساهم إدخال السيارات في منطقة الدراسة بدور أساسي في تشجيع هذا الميل وذلك بتمكينه للأمر البدوية في هذه المنطقة من الاعتماد على السيارات في جلب الماء إلى مواقع مخيماتها . ويمكن التعرف على أهمية دور السيارات في إحداث تغييرات من الأهمية الخالية لها كأساس يعتمد عليه نمط حياة شبه الاستقرار في منطقة الدراسة .

ويمكن وصف الآلية التي تم بموجبها تأثير العوامل الثلاثة المشار إليها أعلاه في إحداث عملية تحول الأسر البدوية في منطقة الدراسة إلى نمط حياة شبه الاستقرار على الوجه التالي :

أدت سنوات الجفاف التي مرت على منطقة الدراسة إلى فقد الكثير من بدو المنطقة حيواناتهم وقد تمت عملية التعويض لهذه الخسارة على أساس الاستكثار من أعداد الضأن والتقليل في نفس الوقت من أعداد الجمال . ويجب ملاحظة أن التخلي عن الجمال لصالح الأغنام كان هو الاتجاه السائد لدى البدو في المملكة العربية السعودية بشكل عام خلال تلك الفترة وذلك كما تمت الإشارة إليه سابقا . وكان الدافع الرئيسي لهذا هو ما ذكر سابقا في بداية هذا البحث من أن الجمال بدأت تفقد قيمتها الاقتصادية بشكل عام . كما أن عدم توفر يد عاملة كافية للعناية بالجمال شكل سببا رئيسيا للتخلي عن الاحتفاظ بها . وكذلك فإن البدء في استخدام البدو للسيارات جعل من غير الضروري إبقاء الجمال المخصصة للنقل والركوب . وبدل على وجود اتجاه لاستبدال الجمال بالأغنام في منطقة الدراسة ما كشفت عنه نتائج الاستبيان الذي قام به الباحث في نفس المنطقة . فتدل إجابات رؤوس الأسر البدوية الذين تمكنوا من تذكر أعداد الجمال التي كانوا يمتلكونها أو التي كانت تمتلكها أسرهم ، قبيل فترات الجفاف المعروفة لديهم على أن متوسط أعداد الجمال لكل أسرة من هذه الأسر كان يزيد في الفترة السابقة للجفاف الذي حدث عام ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م أي سنة الكسوف ، عن المتوسط لنفس الأسر خلال الفترة السابقة للجفاف التالي الذي حدث بعده وهو الجفاف الذي عرف في المنطقة بمسمى سنة عشيرة . فقد بلغ هذا المتوسط ٤٨,٣ جملا لكل أسرة بدوية قبيل جفاف سنة الكسوف ولكنه هبط بعد هذا التاريخ إلى حوالي ٢,٣٥ جملا

في الفترة التالية التي وقعت قبيل جفاف سنة عشيرة مباشرة .

أدى هذا التغيير في تركيب قطعان الحيوانات التي تمتلكها الأسر البدوية في منطقة الدراسة إلى جعل الحركة اليومية والفصلية لهذه الأسر محدودة . فالأغنام التي أصبحت تشكل الجزء الأكبر من قطعان الحيوانات ، جعلت من الضروري على هذه الأسر أن تكتفي بقطع مسافات قصيرة ضمن حركة الرعي اليومية التي تقوم بها وذلك بسبب عدم قدرة الأغنام على السير لمسافات طويلة . وقد أدى نفس هذا السبب إلى تحديد مدى الهجرة الفصلية التي تتحرك بموجبها هذه الأسر إلى المراعي البعيدة في فصل الأمطار . أدت محدودية الحركة اليومية والفصلية لهذه الأسر بالتالي إلى إمكانية ظهور صعوبة تتمثل في عدم القدرة على الحصول على المياه اللازمة لشرب الحيوانات وذلك عند استنفاد موارد المياه المحلية . وقد فاقم في هذه الصعوبة حقيقة أن الأغنام تتطلب تقديم مياه الشرب لها على فترات متتالية أكثر من الجمال (١٩) . وقد تم التغلب على هذه الصعوبة في بداية الأمر بتركيز هذه الأسر على استغلال المناطق الرعوية القريبة من موقع مستوطنة الزبيرة ومناطق وادي الحسكي حيث تتوفر مياه باطنية قريبة من السطح . ولذلك فإن الأسر البدوية في منطقة الدراسة فضلت أن لا تبتعد مواقع خيامها كثيرا عن هذه المناطق . وكان يتم جلب الماء إلى مواقع هذه الخيام بواسطة الجمال من آبار الزبيرة بشكل خاص وذلك عند الحاجة إليه . وقد تم التغلب على هذه الصعوبة نهائيا باستخدام السيارات التي مكنت هذه الأسر بدءا من عام ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م من نقل الماء إلى مواقع خيامهم بكميات أكبر وبطريقة أسهل .

تأثيرات فترة الطفرة الاقتصادية

(التغير في مجتمع الدراسة بعد عام ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م)

يتضح من الوصف السابق أن البداوة الرعوية في منطقة الدراسة بدأت في التحول منذ الجفاف الذي حدث عام ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م إلى نمط جديد يتصف بقلّة حركة الأسر البدوية عما كان في السابق . واتصف هذا النمط أيضا ببدء تخلي هذه الأسر البدوية عن جمالها ، أو بعض جمالها لصالح الأغنام . وقد اتخذ هذا النمط بعدا جديدا مع بدأ

استخدام هذه الأسر للسيارات منذ عام ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م ويمكن الافتراض أن هذا النمط الجديد استمر بدون تغيير لمدة أربعة وعشرين سنة حتى بداية فترة الطفرة الاقتصادية في المملكة العربية السعودية والتي أخذت مجراها مع بداية عام ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م وقد بدأت مع هذه الطفرة الاقتصادية المرحلة الثالثة للتحويل في وظيفة الرعي البدوي . فقد أحدثت هذه الطفرة تحولات عميقة في الاقتصاد والمجتمع السعودي بما قدمته من فرص اقتصادية ومن توسع في الإنفاق الحكومي . ووصلت آثار هذه الطفرة إلى منطقة التيسية في وقت كانت فيه الأنماط التقليدية للحياة الاقتصادية والاجتماعية للأسر البدوية في هذه المنطقة قد بدأت فعلا في التغيير منذ أربع وعشرين سنة وذلك كما جرى وصفه سابقا .

نجد لهذا أن تأثيرات الطفرة الاقتصادية بما قدمته من حوافز للتغيير لم تقابل بمقاومة في هذه المنطقة . بل وجدت هذه التأثيرات أن الظروف كانت مهيئة لحدوث تغييرات أخرى تمثلت في تحول هذه الأسر إلى نمط حياة شبه الاستقرار . ولا بد من الإشارة إلى أنه بالرغم من أن بداية التحول بين الأسر البدوية في منطقة الدراسة حصلت في أوقات سابقة إلا أن فترة الطفرة الاقتصادية في البلاد عمقت هذا التحول . ويمكن هنا تحديد خمسة عوامل رئيسية ساهمت في إحداث التحول في خلال فترة هذه الطفرة الاقتصادية الأخيرة التي مرت بها البلاد :

(١) ارتفاع أسعار الأغنام المحلية : إن من أول التأثيرات التي أدت إلى إحداث تغيير في مجتمع الأسر البدوية في منطقة التيسية هي الزيادة الكبيرة التي أحدثتها الطفرة في أسعار الأغنام المنتجة محليا على المستوى الوطني ، وقد كسرت هذه الزيادة الانخفاض الذي كان يسيطر على أسعار الحيوانات الحية خلال الفترة السابقة . فما تسببت فيه هذه الطفرة من زيادة في الإنفاق الشخصي لدى المواطن السعودي إنعكس في حدوث ارتفاع كبير في أسعار الأغنام المنتجة محليا بشكل عام في جميع أنحاء البلاد . وقد ارتفعت بهذا أسعار أغنام الضأن النجدية من حوالي ١٥٠ - ٢٠٠ ريالاً للرأس الواحد قبل الطفرة إلى حوالي ٣٥٠ - ٤٥٠ ريالاً في المتوسط وحتى ٧٠٠ ريالاً في بعض الحالات بعد بدء الطفرة . وتمثل هذه الزيادة تغيراً مهماً حيث إنها أحدثت

تعديلا في الميزان التجاري للتبادل والذي كان في غير صالح البدو بشكل عام في فترة بداية هذا القرن وذلك كما تم إيضاحه سابقا . وجاءت هذه الزيادة في وقت كانت فيه الأسر البدوية في منطقة الدراسة قد بدأت فعلاً في وقت سابق بالتركيز على تربية الضأن بدلا من الجمال . وأدى هذا إلى تمكين هذه الأسر من الاستفادة ماليا بطريقة مباشرة من التحولات الاقتصادية التي جاءت بها الطفرة .

(٢) معونة الشعير : شكل العائد الاقتصادي الذي جاءت به الزيادة في أسعار الأغنام حافزا جديدا للأسر البدوية في منطقة الدراسة للاستثمار من أعداد الأغنام . وعزز من قوة هذا الحافز بدء تدفق الشعير الذي دعمت أسعاره من قبل الدولة إلى منطقة التيسية في حوالي عام ١٣٧٧هـ / ١٩٧٧م فقد وفر هذا الشعير أعلافاً رخيصة يمكن الاعتماد عليها في تربية الضأن والحصول على عائد اقتصادي مجز . ويجب التأكيد هنا على أن الإعانة المالية المقدمة من الدولة للبدو على عدد رؤوس الحيوانات التي يمتلكونها (انظر الهامش رقم ٩ من هذا البحث) قدمت حافزا اقتصاديا آخر في هذا الخصوص .

قدم عاملي الارتفاع في أسعار الأغنام وتوفر أعلاف رخيصة دوافع شجعت على الأخذ بنمط حياة شبه الاستقرار . فقد ضمن هذين العاملين للأسر البدوية في منطقة الدراسة فرصة للحصول على دخل وافر وثابت في نفس الوقت . وتوقف تحقيق هذه الفرصة على إمكانية تبني هذه الأسر لأساليب جديدة في تربية الحيوان واستغلال الموارد الرعوية . وتطلبت هذه الأساليب الجديدة ضرورة إبقاء الحيوانات في مكان ثابت وذلك بسبب اتخاذ الشعير كعلف لها بشكل أساسي . كما تطلب أن يقتصر استخدام هذه الحيوانات للمراعي الطبيعية على ما هو قريب من مكان مبيتها «المراح» فقط . أما بالنسبة لحاجة هذه الحيوانات من الماء فإن استخدام السيارات قد مكن من جلبه إليها . وبهذا أصبحت الأسر البدوية التي اتبعت هذه الأساليب الجديدة غير مضطرة لتغيير مكان إقامتها كل يوم أو بعض يوم بحثا عن مرعى ومورد مياه للحيوانات التي تربيتها . وبذلك تمكنت من أن تتخذ مكانا ثابتا أو شبه ثابت لإقامتها .

(٣) حفر آبار ارتوازية حكومية : يتضح من الفقرة السابقة أن عملية التحول إلى

نمط حياة شبه الاستقرار اعتمدت كثيرا على توفر حوافز اقتصادية . ولا شك في أن قيام الدولة بحفر بئر ارتوازي مكان الآبار التقليدية المسماة قلبان ، جمع قلب ، في موقع مستوطنة الزبيبة في عام ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م قدم حافزا اقتصاديا آخر شجع على عملية التحول للإقامة في مكان ثابت . فالحاجة المتزايدة للماء بسبب زيادة أعداد الضأن التي تمتلكها كانت ستجعل من عملية الاستقرار صعبة أو حتى غير ممكنة في حالة عدم توفر مصدر قريب للماء . ولكن هذا البئر الحكومي وفر مصدرا مجانيا ومضمونا للماء يكتفي هذه الأسر عن الحاجة للترحل لأجل الحصول عليه . وقد كشفت نتيجة الاستبيان الذي قام به الباحث أنه فيما عدا أربع أسر ، والتي تقطن على أطراف منطقة الدراسة والتي تحصل على حاجاتها من المياه من موارد خارج المنطقة . فإن جميع الأسر في منطقة الدراسة تأخذ مياهها من بئر الزبيبة .

(٤) توسع فرص العمل في وظائف خارج نطاق إقتصاد الرعي البدوي : ساعد

أسلوب إدارة الموارد المشار إليه أعلاه الأسر البدوية في منطقة الدراسة على حل مشكلة قلة اليد العاملة . وقد ظهرت هذه المشكلة مع بدء دخول كثير من الذكور المتمين لهذه الأسر في وظائف خارج نطاق إقتصاد الرعي البدوي ولكنها تناقمت مع زيادة توفر وظائف وفرص في الأعمال الحرة خلال فترة الطفرة الاقتصادية الأخيرة في البلاد . وترتب على هذا أن الحاجة قد تزايدت مع فترة هذه الطفرة إلى إتباع هذا الأسلوب وذلك بسبب قلة متطلباته من اليد العاملة . ونجد أنه مما شجع على إتباع هذا الأسلوب وجعله ضرورة هو أن فرص العمل وغياب الأبناء أدى إلى ترك المسنين لوحدهم ليقوموا بمهمة الإشراف على الحيوانات . ويتضح هذا الأمر في حقيقة ما تكشفه نتيجة الاستبيان الذي قام به الباحث حيث تبين أن متوسط الأعمار لرؤوس الأسر البدوية في منطقة الدراسة في الوقت الحاضر تبلغ ٥٦,٥ سنة . ونجد إذاً أن إتباع هذا الأسلوب ساهم في إيجاد حل لمشكلة قائمة . ولكن نجد من ناحية أخرى أن توفر هذا الحل جعل من الممكن في نفس الوقت خروج الكثير من الذكور في هذه الأسر للعمل خارج نطاق إقتصاد الرعي البدوي . ويتضح من هذا أن توفر هذه الوظائف شجع على إتباع الأسلوب الجديد في إدارة الموارد ومن ثم شجع هذه الأسر على تبني نمط حياة شبه

الاستقرار .

وقد لعب الدخل المتولد عن هذه الوظائف دورا مهما في عملية التحول نحو حياة شبه الاستقرار . إذ تم استخدام جزء غير صغير من هذا الدخل في شراء سيارات ساهمت في تمكين الأسر البدوية من اتخاذ مكان ثابت أو شبه ثابت لإقامتها . كما أن ما أدى إليه هذا الدخل من تغيير في أنماط الاستهلاك لدى هذه الأسر أدى إلى تحويل الخيمة البدوية البسيطة ومحتوياتها القليلة إلى مكان مليء بالأثاث والأغراض الاستهلاكية . وقد أفاد جميع رؤوس الأسر الذين تمت مقابلتهم أن حجم الخيمة التي يسكنون بها الآن يزيد عن حجم الخيمة التي كانوا يسكنونها سابقا كما أن أغراضهم تزيد كثيرا من ناحية الحجم والعدد عما كانوا يمتلكون سابقا . أدى ثقل هذه الأغراض إلى صعوبة التنقل ومن ثم فإن هذه الأسر لم تتمكن من الاحتفاظ بنظامها التقليدي للترحل الذي اعتادت عليه .

(٥) توفر الخدمات الحكومية : لاشك في أن حياة الترحل الدائم التي ترتبط بالبدوة الرعوية في شكلها التقليدي تتعارض كثيرا مع ضرورة ارتباط هذه الخدمات بمواقع مستوطنات بشرية ثابتة . وأدى هذا إلى صعوبة استفادة الأسر البدوية في منطقة الدراسة من الخدمات الحكومية وغير الحكومية بشكل متظم وبكلفة اقتصادية يمكن تحملها وذلك في حالة استمرارهم على التمسك بحياة التنقل والترحال الفصلي . ولذلك يمكن التأكيد على أن رغبة هذه الأسر في الاستفادة من هذه الخدمات لعبت دورا كبيرا في تشجيعهم على التحول إلى نمط حياة شبه الاستقرار . وتؤكد نتائج الاستبيان الذي قام به الباحث على وجود ارتباط بين الرغبة في الحصول على الخدمات المتوفرة في مستوطنة الزبيبة القائمة في منطقة الدراسة وبين هذا التحول . ويمكن التعرف على قوة هذا الارتباط من حقيقة أن الرغبة في الاستفادة من خدمات التعليم والرعاية الصحية الأولية والبئر الحكومي المتوفرة في هذه المستوطنة أدت إلى ميل الأسر التي اختارت نمط حياة شبه الاستقرار على عدم الابتعاد كثيرا عن محيط هذه المستوطنة . فقد أفاد تسعة وعشرين . أو ٩٣,٥ ٪ ، من مجموع رؤوس الأسر البدوية الذين تم طرح أسئلة الاستبيان عليهم أنهم اختاروا مكان إقامتهم الحالي بسبب الرغبة في أن يكونوا قريبين

من الخدمات المتوفرة في مستوطنة الزبيرة . ويتضح هذا الأمر عند التعرف على دور المسافة في اتخاذ هذه الأسر لقرار إرسال أبنائها إلى المدارس الحكومية في هذه المستوطنة من عدمه . فكما يشير الجدول رقم (٣) نجد أن ما يزيد عن ٨٦٪ من الأسر التي تقطن في مواقع مثل وادي الحسكى والقريبة من مستوطنة الزبيرة ترسل أبنائها إلى هذه المدارس وتتناقص هذه النسبة مع ازدياد المسافة حتى نجد أن الأسر التي تقطن في وادي خثال والرميلان ، وهما الأبعد عن هذه المستوطنة ، لا ترسل أياً من أبنائها إلى المدارس .

ويمكن الاعتماد على هذه الحقيقة في وضع افتراض مفاده أن الأسر التي اختارت لسكنها مواقع قريبة من مستوطنة الزبيرة هي الأقرب إلى نمط حياة شبه الاستقرار أما الأسر الأقرب لحياة الترحل فهي تلك الأسر التي تقطن بعيدة عن هذه المستوطنة . ويؤيد هذه الفرضية حقيقة أن هذه الأسر القريبة من مستوطنة الزبيرة تمتلك في المتوسط أعداداً أقل من الجمال عن الأسر التي تقطن بعيدة عنها وذلك كما يشير الجدول رقم (٤) كما أن نسبة الأسر التي تمتلك جمالاً تزداد كلما زادت المسافة التي تفصلها عن هذه المستوطنة وذلك كما يشير نفس الجدول (٢٠) .

نمط حياة شبه الاستقرار في منطقة التيسية ، منطقة حائل الإدارية

الجدول رقم (٣)

العلاقة بين المسافة إلى مستوطنة الزبيرة ونسبة الالتحاق بالمدارس

منطقة السكن		متوسط المسافة إلى الزبيرة	عدد الأسر في العينة	الأسر التي ترسل أبنائها إلى المدارس	
				العدد	%
وادي الحسكى وفروعه والسهل الواقع إلى الغرب من الزبيرة		١٨,٧	١٤	١٢	٨٦
مناطق الدكاك*		٣٨,٧	١٢	٥	٤٢
وادي خثال والريميلان		٤٨	٥	صفر	صفر

* تشمل هذه المناطق التي تم مسحها وتمثل شامة الأكباد وشامة زرود وعرق المظهور ومناطق التفاء أودية التيسية مع الدعناء .
المصدر : تم إعداد هذا الجدول بناء على بيانات الاستبيان الذي قام به الباحث أثناء عمله الحقلي في منطقة الدراسة خلال
صيف ١٩٩٥ .

الجدول رقم (٤)

العلاقة بين المسافة إلى مستوطنة الزبيرة وعدد الأسر التي تمتلك
جمالاً ومتوسط عدد الجمال التي تمتلكها كل أسرة

منطقة السكن		متوسط المسافة إلى الزبيرة	عدد الأسر في العينة	الأسر التي تمتلك جمال	متوسط عدد الجمال التي تمتلكها كل أسرة
				العدد	%
وادي الحسكى وفروعه والسهل الواقع إلى الغرب من الزبيرة		١٨,٧	١٤	٨	٥٧
مناطق الدكاك*		٣٨,٧	١٢	٨	٦٧
وادي خثال والريميلان		٤٨	٥	٤	٨٠

* تشمل هذه المناطق التي تم مسحها وتمثل شامة الأكباد وشامة زرود وعرق المظهور ومناطق التفاء أودية التيسية مع الدعناء .
المصدر : تم إعداد هذا الجدول بناء على بيانات الاستبيان الذي قام به الباحث أثناء عمله الحقلي في منطقة الدراسة خلال
صيف ١٩٩٥ .

نتائج التحول إلى نمط حياة شبه الاستقرار في منطقة التيسية

أدى التحول إلى نمط حياة شبه الاستقرار في منطقة الدراسة إلى ظهور نتائج اقتصادية وبيئية واجتماعية بعضها إيجابي والبعض الآخر له صفة سلبية . ويمكن إيضاح هذه النتائج في التالي :

أولاً : النتائج البيئية (استنزاف الموارد الرعوية)

ترتب على ظهور نمط حياة شبه الاستقرار وما تولد عنه من محدودية حركة الرعي واقتصارها على مساحات صغيرة إلى حدوث استنزاف حقيقي للموارد الرعوية وانخفاض في قدرتها الإنتاجية خصوصاً في المناطق المحيطة بمواقع سكن الأسر البدوية . وتؤكد المقابلات التي أجريت مع رؤوس هذه الأسر على حدوث هذا التدهور البيئي في منطقة الدراسة . فقد أفاد كل من تمت مقابلتهم من رؤوس الأسر البدوية على أن الغطاء النباتي الحالي في المنطقة هو أقل كثافة عما كان في السابق . ويؤكدون على هذا بالإشارة إلى قلة شجيرات الأرضي والعرنج حالياً عما كان عليه الوضع في السابق . كما أشار الكثير منهم على أن بعض الأنواع من النباتات الرعوية الجيدة مثل الرخامة والسعدان والنصي والرقروق والحماط اختفت من كل منطقة الدراسة فيما عدى بعض المواقع . وعند سؤال هؤلاء الأشخاص عن النباتات التي ازدادت أشاروا إلى وجود زيادة في نباتات الشبرم - الذي يعرف أيضاً بمسمى صلة - والبورق وهي نباتات ذات قيمة رعوية منخفضة . وتدل نتائج المسح الحقلي للباحث وإفادات سكان المنطقة على أن أكثر المناطق المتضررة بهذا التدهور في الحياة النباتية هي المناطق المحيطة بمسرحنة الزبيرة ومنطقة أخوض الأوسط لوادي الحسكى . ويمكن تفسير هذا بالإشارة إلى أن هذه هي نفسها المناطق الأكثر ازدحاماً بالأسر البدوية في منطقة الدراسة .

أدت عدة عوامل إلى تفاقم مشكلة التدهور المذكورة أعلاه . وتمثل أحد هذه العوامل في تواجد أعداد كبيرة من الوحدات الحيوانية على مساحات محدودة من الأرض . وتفوق هذه الوحدات الحيوانية ما كانت تمتلكه هذه الأسر عندما كانت تتبع الشكل التقليدي للبدو الرعوية . ويشكل تجمع أعداد كبيرة من الأسر البدوية بقضعاتها الكبيرة من الحيوانات في مناطق مثل منطقة وسط وادي الحسكى عاملاً آخر

يساهم في حدوث التدهور البيئي المشار إليه أعلاه . ونجد في هذه الحالة أن رغبة أي أسرة للتخلص من هذا الازدحام يقابله من ناحية أخرى رغبتها في البقاء ضمن محيط عدد كبير من الأسر وذلك لما يقدمه هذا من فوائد اجتماعية . وينطبق هذا الأمر خصوصاً على الأسر التي تسكن في منطقة وسط وادي الحسكي حيث يقدم عامل القرب من مستوطنة الزبيبة حافزاً اقتصادياً للبقاء في هذه المنطقة المزدحمة . ويجب التحذير هنا من أن الزيادة الحاصلة في أعداد الحيوانات لا تشكل السبب الأساسي في تدهور الغطاء النباتي بالمنطقة بقدر ما يشكله تجمع أعداد كبيرة منها في منطقة صغيرة . فالزيادة في متوسط ما تمتلكه كل أسرة من الرؤوس الحيوانية يقابلها من الجانب الآخر حدوث نقص كبير في أعداد الأسر البدوية في منطقة الدراسة ، وذلك كما أشير إليه سابقاً . ويعني هذا احتمالية أن العدد الحالي للحيوانات في المنطقة لا يشكل زيادة كبيرة عن عددها سابقاً .

ويساهم في حدوث التدهور في الغطاء النباتي بالمنطقة عامل قدوم أعداد كبيرة من الجماعات البدوية من مناطق أخرى من البلاد إليها خلال فصل الأمطار . ويأتي هؤلاء عادة ومعهم أعداد كبيرة من الجمال والأغنام ويغادرون المنطقة بعد أن يتم لهم استزاف الغطاء النباتي المتوفر . كما يأتي إلى المنطقة أيضاً عدد لا بأس به من سكان المدن القريبة وذلك لقضاء جزء من أجازة الربيع حيث يمضون جل وقتهم في ممارسة هواية صيد الضبان . ويساهم هؤلاء - كما يؤكد الكثير من سكان المنطقة - في إحداث تخريب بالحياة النباتية بها . ولكن من المؤكد أن الأثر السلبي لنشاط هؤلاء على البيئة يفوقه بمراحل كبيرة نشاط جامعي الحطب والذين يأتون في الغالب من خارج المنطقة . ويعمد هؤلاء إلى اقتلاع أشجار الأرطى والسلم والطلح ذات القيمة الرعوية العالية .

ولا يقتصر ضرر تواجد أعداد كبيرة من الوحدات الحيوانية في مساحة صغيرة على حدوث تدهور في الغطاء النباتي فقط . فمن المحتمل جداً أن يؤدي هذا التجمع إلى حدوث تدهور في الصحة العامة لهذه الحيوانات . فقد أدى هذا التجمع إلى سرعة انتقال العدوى بالأمراض بينها الأمر الذي تسبب في ازدياد معدلات النفوق بين هذه الحيوانات . وكما يشير الجدول رقم (٥) فإن نسبة النفوق هذه تصل إلى أعلى

مستوياتها في منطقة وسط وادي الحسكى ، والتي هي الأكثر ازدحاماً بالأسر البدوية وذلك كما سبق ذكره . وتنخفض هذه النسبة كلما ابتعدنا عن مستوطنة الزبيرة إلى الأماكن التي هي أقل ازدحاماً .

الجدول رقم (٥)

العلاقة بين المسافة إلى مستوطنة الزبيرة ونسبة التفوق بين الحيوانات

متوسط النسبة المثوية لما فقدته كل أسرة من مجموع ما تمتلكه من حيوانات**	متوسط عدد الحيوانات النافقة لدى كل أسرة**	عدد الأسر في العينة	متوسط المسافة إلى مستوطنة الزبيرة	منطقة السكن
١٨	٢٤	١٤	١٨,٧	وادي الحسكى وفروعه والسهل الواقع إلى الغرب من الزبيرة
١١	١٤	١٢	٣٨,٧	مناطق الدكاك**
٨	١١	٥	٤٨	وادي خثال والرميلان

* يشمل هذا الرقم أربع أسر تسكن الزبيرة ولكن يوجد لها مخيم يسكن به راع مستأجر

** وحدات حيوانية .

*** تشمل هذه المناطق التي تم مسحها وتمثل شامة الأكياد وشامة زروود وعرق الظهور ومناطق التقاء أودية التسيبة مع الدهناء .
المصدر : تم إعداد هذا الجدول بناء على بيانات الاستبيان الذي قام به الباحث أثناء عمله الحقلية في منطقة الدراسة خلال صيف ١٩٩٥ .

نجد من ناحية أخرى أن تدهور الغطاء النباتي وما تلاه من انخفاض في الطاقة الرعوية تسبب في عدم قدرة الحيوانات التي تربيتها الأسر البدوية في المنطقة على الحصول على كفايتها ، من ناحية النوع والكم ، من الغذاء الذي تحتاجه من المراعي الطبيعية . كما أن محدودية حركة هذه الحيوانات وعدم تحركها لمسافة كبيرة أدت إلى عدم تمكنها من استغلال بعض الأنواع من النباتات التي تظهر في بيئات مختلفة عن بيئة مكان المراعي . يؤدي هذا إلى احتمالية عدم حصول هذه الحيوانات على بعض احتياجاتها من معادن وعناصر غذائية أخرى مهمة لصحتها العامة ومما يرجح هذا

الاحتمال هو عدم إمكانية توفير جميع العناصر الغذائية الضرورية لصحتها في أنواع النباتات المتوفرة في محيط مكن البدو شبه المستقرين حيث تربي هذه الحيوانات . وينعكس هذا النقص في ضعف مقاومتها للأمراض كما يؤثر هذا في وزنها سلبياً . وإذا كان حدوث هذا النقص هو مجرد افتراض في مثل هذه الحالة إلا أن هذا النقص هو مؤكد في حالة اعتماد الحيوانات على الشرب من مياه جوفية عميقة «حفرية» . وتؤكد المشاهدات حدوث مثل هذا النقص في منطقة الساحل من غرب أفريقيا . فالاعتماد في تلك المنطقة على المياه الجوفية العميقة لشرب الحيوانات أدى إلى حدوث نقص في إمدادها بمعدن الفوسفات الأمر الذي دفع هذه الحيوانات إلى أن تلوك عظام الحيوانات الميتة (Boudet, 1973, 32) للحصول على حاجتها من هذا العنصر . ويمكن اعتماداً على هذا أن تفسر نهش الأغنام في منطقة الدراسة لأجساد الأغنام الميتة ، وذلك حسب مارواه الكثير من مربى الأغنام في المنطقة ، بأن هذه الأغنام تعاني من نقص في معدن الفوسفات . ويرجع الباحث أن هذا النقص حدث في منطقة الدراسة بسبب اعتماد هذه الحيوانات على المياه الجوفية العميقة للشرب وعدم قدرتها على تعويض النقص في هذه المادة بسبب عدم ابتعادها عن مناطق السكن إلى مناطق أخرى قد يتوفر بها هذا المعدن ، كما أن اعتماد هذه الحيوانات كمصدر رئيسي للعلف أدى إلى وجود نقص في بعض العناصر الغذائية في غذائها .

ثانياً : النتائج الاقتصادية

يقدم نمط حياة شبه الاستقرار جملة من المزايا الاقتصادية التي لم تكن تتوفر للأسر البدوية في منطقة الدراسة سابقاً . ولعل من أهم هذه المزايا هو قدرة هذه الأسر على زيادة دخلها من نشاطها التقليدي الذي هو تربية الحيوانات . فقد كانت هذه الأسر مضطرة ، تحت وطأة نظام الرعي البدوي في شكله التقليدي وذلك كما تمت الإشارة إليه في بداية هذا البحث ، على وضع حد أعلى لأعداد الحيوانات التي تربيتها . ولكن التحول إلى نمط حياة شبه الاستقرار أتاح لهذه الأسر الإكثار من أعداد الحيوانات التي تربيتها الأمر الذي زاد في دخلها من هذا النشاط . ونتج عن هذا زيادة في القوة الشرائية لهذه الأسر مما أدى إلى إحداث تغير ملحوظ في أنماط استهلاكها وتنوع في عاداتها الغذائية .

ويتيح نمط حياة شبه الاستقرار للأسر البدوية في منطقة الدراسة فرصة قيمة للمشاركة في الاقتصاد القومي . ومما ييسر هذه المشاركة هو أن توقفت هذه الأسر عن الترحل مكن الكثير من الذكور البالغين في هذه الأسر من الانتحاق بوظائف أو القيام بأعمال استثمارية في مجالات خارج النشاط التقليدي لهم . وقد تمت الإشارة سابقا (ص ٤٤ من هذا البحث) إلى أن اتباع هذا النمط ساهم في إمكانية ترك هؤلاء الذكور أسرهم للعمل في أنشطة أخرى .

ترتب على اتباع نمط حياة شبه الاستقرار ظهور بعض الصعوبات الاقتصادية والتي تمثل في تبعات مالية تثقل كاهل الأسر البدوية في منطقة الدراسة . فما يتطلبه هذا النمط من اعتماد كبير على السيارات لنقل الماء والشعير ولأجل تنقل الأفراد لمسافات كبيرة يجعل من الضروري على كل أسرة في المنطقة أن تنفق مبالغ طائلة على شراء سيارات من أنواع وأحجام مختلفة . وقد أشير سابقا إلى حقيقة تملك كل أسرة في منطقة الدراسة لسيارتين على الأقل . ولاشك في أن مثل هذا الاستخدام للسيارات يتطلب مصاريف مالية عالية لشراء المحروقات وقطع الغيار . ونجد من ناحية أخرى أن محدودية حركة الحيوانات وتدهور حالة المراعي المحيطة بمناطق سكن هذه الأسر تؤدي إلى ضرورة الاستعانة بأعلاف مستوردة لسد حاجات حيواناتهم من الغذاء . وتشير نتائج الدراسة الحقلية إلى أن تكلفة الشعير الذي يقدم للحيوانات في مثل هذه الحالة تصل إلى نسبة تتراوح بين ٢٠٪ و ٣٥٪ من سعر بيع هذه الحيوانات . وتشكل الرواتب التي تدفع لرعاة مستأجرين عند الكثير من الأسر عبئا ماليا آخر تسبب في وجوده عوامل مثل عدم توفر أيد عاملة كافية وزيادة أعداد الحيوانات وهي عوامل ترتبط بنمط حياة شبه الاستقرار في منطقة الدراسة .

أدت الأعباء المالية المشار إليها أعلاه إلى اضطراب الكثير من رؤوس الأسر إلى الاستدانة . ويستمر هؤلاء في المعاناة لفترة طويلة من تبعات الديون المترتبة عليهم . ويتم التخلص من هذه الديون عادة في خلال السنوات التي تسقط خلالها أقطار غزيرة تساهم في خفض تكاليف الإنتاج عن طريق التقليل من مشتريات الشعير .

لاحظ الباحث من خلال الإجابات التي قدمت على أسئلة الاستبيان في منطقة

الدراسة وجود ظاهرة اقتصادية تتمثل في قلة مبيعات الأسر البدوية في هذه المنطقة من السمن والزبد . وعند الاستفسار عن هذا الأمر أفاد رؤوس الأسر البدوية الذين تمت مقابلتهم لأجل تعبئة هذا الاستبيان بأن السبب يكمن في قلة إنتاجهم في الوقت الحالي من هاتين السلعتين . وعزى هؤلاء قلة الإنتاج هذه إلى أسباب مفادها «أن حياة شبه الاستقرار أدت إلى عدم تحمس النساء لإنتاجهما» .

ثالثا : النتائج الاجتماعية لنمط حياة شبه الاستقرار

أدى التحول إلى نمط حياة شبه الاستقرار إلى تحسن كبير في النواحي الاجتماعية للأسر التي قبلت بهذا النمط . فنتيجة للاستقرار والسكن بالقرب من موقع تقديم الخدمات الحكومية أصبح بإمكان هذه الأسر إرسال أبنائها إلى المدارس كما أصبح بإمكانها الاستفادة من خدمات الرعاية الصحية والخدمات الحكومية الأخرى . وأدى هذا التحول أيضا إلى فك العزلة السابقة للأسر البدوية . فقد تسبب السكن في مكان ثابت وتقارب مناطق السكن إلى إيجاد درجة أكبر من التواصل الاجتماعي بين هذه الأسر . ويمكن الاستشهاد بردود رؤوس الأسر البدوية في منطقة الدراسة وفي حائل بشكل عام على الأسئلة التي وجهت إليهم على أن الحياة الحالية للبدو هي أفضل مما كانت عليه سابقا . وقد أكد هؤلاء على إفادتهم بالإشارة إلى ما كانوا يتكبدونه سابقا من دوام الترحل وما تطلبه هذا من جهد . كما دللوا على صعوبة حياتهم السابقة بما كانوا يواجهونه من شظف في العيش ومن أخطار انحباس الأمطار . ويمكن تأكيد هذه الآراء بالإشارة إلى ما ذكر سابقا من أن حياة البدو لم تكن خالية من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والبيئية خلال فترة مكوثهم في قاعدتهم الصيفية .

ترافق مع التحسن في الأحوال الاجتماعية بعض المظاهر السلبية . وتكمن أحد هذه المظاهر في أن سهولة ترك الذكور البالغين مناطقهم للعمل في وظائف خارج نطاق عمل أسرهم أدى إلى إلقاء مهمة العناية بالحيوانات على كبار السن . ويشكل هذا الأمر في حد ذاته صعوبة يتم حلها جزئيا في منطقة الدراسة باستخدام رعاة مستأجرين ، غير سعوديين . وتكمن المشكلة الحقيقية هنا في أن وظيفة الرعي البدوي هي وظيفة متوارثة يتم فيها نقل المعرفة عن طريق الممارسة والملاحظة وذلك بمشاركة الأبناء لأبائهم في هذه

الوظيفة . ولكن عدم مشاركة الأبناء في وظائف آبائهم يؤدي في هذه الحالة إلى الإقلال كثيرا من فرص نقل المعرفة المتكدسة خاصة بوظيفة الرعي البدوي من الآباء إلى أبنائهم . ولاشك في أن استمرار مثل هذا الوضع سيؤدي مستقبلا إلى صعوبة بقاء نمط حياة شبه الاستقرار نفسه كوظيفة اقتصادية وذلك في ظل ضياع المعرفة الموروثة التي تتعلق بمهنة تربية الحيوانات .

الخاتمة

قام الباحث في هذه الدراسة بالتركيز على أربعة محاور وهي كالتالي : (١) الأساس البيئي لوظيفة الرعي البدوي . (٢) التغيير في وظيفة الرعي البدوي وكيف حدث هذا التغيير . (٣) الجوانب الاقتصادية والبيئية والاجتماعية المتعلقة بوظيفة الرعي البدوي في شكلها التقليدي وكيف تختلف هذه الجوانب حاليا تحت نمط حياة شبه الاستقرار (٤) . الآثار الاقتصادية والبيئية والاجتماعية التي ترتبت على ظهور نمط حياة شبه الاستقرار .

وبالرغم من أن كل محور من هذه المحاور يمثل موضوعا قائما في حد ذاته إلا أنها ترتبط منطقيا فيما بينها . ويقدم موضوع الاستغلال البشري للبيئة الطبيعية في منطقة جافة الأساس الجغرافي الذي اعتمده هذه الدراسة ليشكل حلقة الربط بين هذه المحاور الأربعة . وقد وظف الباحث موضوع التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في الدول التي تعيش بين ظهرانيتها جماعات بدوية لأجل تقديم تفسير للتغيرات الحديثة في طبيعة هذا الاستغلال البشري . إذ تكشف هذه الدراسة أن التغيير الذي حدث في وظيفة الرعي البدوي جاء كرد فعل على هذه التحولات التي حدثت على المستوى القومي لهذه الدول .

أما فيما يخص البعد المكاني لهذه الدراسة فقد تمت معالجة هذا البعد بمناقشة ما أدى إليه التأثير الذي جاءت به التحولات المشار إليها أعلاه من تغيير في أساليب استخدام الموارد وحركة الترحل لدى الجماعات البدوية . وتم التأكيد هنا على أن هذا التأثير قد أدى إلى حدوث تقلص في المجال المكاني لاستخدام الموارد الطبيعية عما كان يتبع سابقا

تحت نمط الرعي البدوي بشكله التقليدي . وتطلب هذا التأكيد ضرورة وضع وصف لكل من النمط التقليدي والنمط الحديث لاستخدام الموارد والترحل وضع فيه الباحث العلاقات المكانية التي تحكم استخدام هذه الموارد في كل من هذين النمطين . وقد تمت معالجة موضوع علاقة الإنسان بالبيئة والبعد المكاني لهذه العلاقة بالتطبيق على حالة المملكة العربية السعودية بشكل عام وعلى منطقة التيسية بشكل خاص .

ولأجل توضيح الإطار الجغرافي للدراسة ، والذي تمت الإشارة إليه أعلاه ، فقد صدر الباحث دراسته بالتأكيد على حقيقة أن وظيفة الرعي البدوي تشكل نظاماً اقتصادياً واجتماعياً يتلائم مع ظروف الإمكانيات الإنتاجية المحدودة للبيئات الجافة من العالم . وقد ارتكز هذا النظام على أسس علمية متوارثة تنظم عملية استغلال الموارد الرعوية . وتتضمن هذه الأسس قواعد خاصة بتنظيم حركة الترحل اليومية والفصلية . ويكمن الغرض من هذه القواعد في ضمانها لعدم استنزاف الموارد الرعوية والمحافظة عليها لاستخدامات مستقبلية . ولتحقيق نفس غرض المحافظة على البيئة فقد اشتملت هذه الأسس أيضاً على بعض القيود مثل وجود حد أعلى لعدد الحيوانات التي يمكن امتلاكها ووجود حدود للأرض التي يمكن استغلالها . وقد ارتكزت وظيفة الرعي البدوي في هذا الصدد على إرث ضخم من المعرفة البيئية ومن المعرفة بالحيوانات التي تربي . واعتماداً على هذه الأسس التي ميزت وظيفة الرعي البدوي بشكلها التقليدي تمكنت جماعات البدو الرعاة من استغلال بيئتهم بكفاءة وبأقل قدر ممكن من التأثيرات السلبية على البيئة . كما نجح النظام التقليدي الذي قامت عليه وظيفة الرعي البدوي في تأمين الحاجات المعاشية من مأكّل ومشرب وكساء وسكن لجماعات البدو الرعاة ونجح هذا النظام في نفس الوقت في تأمين فائض استغله البدو للحصول على منتجات وخدمات أخرى عن طريق مبادلتها مع الجماعات المستقرة . وقد استهدف الباحث من هذا التقديم التأكيد على حقيقة التوازن القائم بين الاستخدام البشري وبين البيئة الطبيعية تحت نظام الرعي البدوي بشكله التقليدي .

أكد الباحث في دراسته على أنه بالرغم من هذا النجاح إلا أن وظيفة الرعي البدوي لم تتمكن من الإبقاء على شملها التقليدي أمام التحولات الاقتصادية

والاجتماعية التي طرأت منذ بداية القرن العشرين على الدول التي تقطنها جماعات بدوية . فقد تسببت هذه التحولات بطريقة مباشرة وغير مباشرة على إحداث تغيرات في مختلف الجوانب المتعلقة بهذه الوظيفة الأمر الذي أدى إلى اختلافها جذريا عن الشكل التقليدي لها . وتعود الدوافع الأساسية لهذا التغير إلى حقيقة رغبة الجماعات البدوية إلى تكييف اقتصادها ونمط حياتها مع متطلبات الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التي طرأت على الدول التي تعيش فيها هذه الجماعات . ويتضح مثل هذا الوضع في حالة المملكة العربية السعودية التي حدث فيها التغير المشار إليه أعلاه كنتيجة لظهور دولة مركزية حديثة تمكنت عن طريق تشريعاتها ودورها الاقتصادي من التأثير على حياة البدو الذين يقيمون على أرضها . كما حدث هذا التغير كنتيجة لتدفق دخل وفير من صادرات البترول وما تسبب فيه هذا الدخل من توسع في الإنفاق الحكومي وفي فرص التوظيف والاستثمار . وقد أدى هذا التغير إلى تحول الجماعات البدوية إلى نمط حياة شبه الاستقرار . وقد حدث هذا التحول، بأشكال مختلفة بين كل الجماعات البدوية في البلاد . وتقدم منطقة التيسية مثلا جيدا على هذا التحول الذي تم حدوثه في منطقة منعزلة .

أكدت نتائج الدراسة على أن التغير في وظيفة الرعي البدوي في المملكة العربية السعودية بشكل عام وفي منطقة الدراسة بشكل خاص حدث على ثلاث مراحل . وتتطابق كل مرحلة من هذه المراحل مع مرحلة من مراحل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت على المستوى الوطني من تاريخ هذه البلاد . ويوضح هذا التطابق مدى الاندماج الاقتصادي للأقاليم النائية مع الاقتصاد الوطني . كما أن هذا التغير نفسه الذي حدث في منطقة الدراسة يوضح بشكل جلي قوة التأثيرات الاقتصادية في البلاد وإمكانية وصولها حتى المناطق الريفية المنعزلة منها . وبالرغم من تأكيد الباحث على قوة التأثيرات الخارجية إلا أنه تم التأكيد في نفس الوقت على الدور الإيجابي للجماعات البدوية والذي تمثل في رغبتها في إحداث تغيرات في أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية . وقد وضح الباحث أبعاد هذا الدور بالإشارة إلى رغبة هذه الجماعات كما تمثلها الأسر البدوية في منطقة الدراسة . في التأقلم مع الظروف الاقتصادية الجديدة بالاستفادة من الزيادة في أسعار اللحوم الحية والاستفادة من

الخدمات الحكومية .

تدل نتائج هذه الدراسة على أن وظيفة الرعي البدوي بشكلها التقليدي قد تقلصت، إن لم تكن قد اختفت . وظهر نمط حياة شبه الاستقرار كبديل لها ليس في منطقة الدراسة فحسب ولكن في المملكة العربية السعودية بشكل عام وفي الكثير من الأقطار التي تعيش فيها جماعات بدوية . وبالرغم من المزايا الاقتصادية والاجتماعية التي يوفرها هذا البديل إلا أنه جاء ببعض المشاكل البيئية والاقتصادية والاجتماعية . ويبدو أن الأسر البدوية التي تقبلت نمط حياة شبه الاستقرار لم تتمكن بعد من أن تتكيف مع البعد الاقتصادي وظروف العمل التي جاءت مع هذا النمط الجديد . وبدل على هذا الوضع وجود تكلفة عالية للإنتاج وارتفاع نسبة النفوق بين الحيوانات . كما أنه لا بد من أن يشار هنا إلى أن عدم توفر وسيلة بديلة لنقل المعرفة المتعلقة بمهنة تربية الحيوانات إلى الجيل التالي وظهور مشكلة التدهور البيئي يشكلان خطراً حقيقياً يهدد مستقبل هذا النمط .

ويؤكد الباحث على أنه بالرغم من السلبيات التي تلازم نمط حياة شبه الاستقرار إلا أنه يشكل في الوقت الحالي البديل الاقتصادي المناسب لوظيفة الرعي البدوي . ويمكن تحسين الكفاءة الاقتصادية لهذا البديل بالعمل على تقليل تكاليف الإنتاج . ويمكن الوصول إلى هذا الهدف عن طريق الإقلال من مشتريات الشعير بالعمل على رفع الكفاءة الإنتاجية للمراعي الطبيعية . كما أن تقليل نسبة النفوق بين الحيوانات بتحسين الخدمات البيطرية وتخفيف الأسر البدوية بوسائل العناية الحديثة بالحيوانات سيساهم كثيراً في تحسين الكفاءة الإنتاجية .

ولاشك في أن هنالك أسباباً بيئية واقتصادية عديدة تبرر ضرورة المحافظة على نمط حياة شبه الاستقرار كنظام بديل لوظيفة الرعي البدوي . فنشاط تربية الحيوانات الذي يشكل الأساس الاقتصادي لهذا النمط من الحياة يقوم على استغلال موارد بيئية هامشية لا يمكن استغلالها بأي وسيلة أخرى . وقد شكّل اختفاء وظيفة الرعي البدوي في حد ذاته خسارة تتمثل في عدم استغلال هذه الثروة الاقتصادية القومية . ولكن ظهور نمط حياة شبه الاستقرار يشكل بديلاً يعوض بعضاً من هذه الخسارة .

الهوامش

(١) إن الهدف الأساسي من برنامج الدعم البيئي للبادية هو القيام بمسح موارد الثروة الرعوية ووضع خطة مناسبة لصيانة هذه الموارد وتحسين وسائل استغلالها . ويهدف هذا البرنامج أيضاً إلى تقديم المعلومات المناسبة عن أحوال المراعي للجماعات البدوية التي تستخدمها .

(٢) وهو المشار إليه برقم (٩) في ثبت المراجع .

(٣) وهو المشار إليه برقم (١١) في ثبت المراجع .

(٤) من مقابلة مع أحد أبناء المنطقة وهو عبيد بن عيد بن ربيق الوهبي .

(٥) لا يمكن لأي نظام مثل هذا من أن يعمل في حالة وجود حالة من انفلات الأمن واخروب القبيلة . فالتقطعان البعيدة عن القاعدة الصيفية تكون معرضة في هذه الحالة للسلب من أي مجموعة معادية . ونجد أنه حتى القاعدة الصيفية نفسها كانت غير آمنة من احتمالية مهاجمتها من قبل أي فئة معادية . انظر : (H. R. P. Dickson, 1949, P. 50) .

(٦) تؤكد إشارة موسيل (Musil, 1930, 238) على المشاق التي كان يتحملها البدو في العناية بالجمال من حيث الجهد والوقت اللازمين لسقيهم . فقد شاهد في أحد رحلاته أن البدو المرافقين له بذلوا أربعة ساعات من العمل المضني لأجل سقاية ستة عشر جملاً فقط . ويؤكد كول (Cole, 1975, 38) على أن القطيع العادي من الجمال يحتاج إلى راعيين متفرغين وآخر نصف متفرغ وذلك على أقل تقدير . ولذلك فإن القطعان الصغيرة كانت مفضلة .

(٧) يذكر أحد الباحثين في تقرير أن جملاً واحداً في منطقة تاجنت "Tagant" في موريتانيا كان سعره يعادل سعر عشرين بقرة حلوب في عام ١٩١٠ . وقد انخفض هذا السعر حتى أصبحت قيمة الجمل الواحد تساوي قيمة بقرة حلوب واحدة عام كتابة التقرير ، أي عام ١٩٦١ م انظر : Theodore Monod and Charles Toupet, 1961, 249 .

(٨) تصرف هذه عن طريق مكتب شؤون البادية التابع للديوان الملكي (وزارة

التخطيط ، ١٣٩٥ ، ص ٦١٢) .

(٩) بدأ العمل بهذه الإعانات في عام ١٣٩٤ هـ . وكانت تصرف على أساس عشرة ريالاً لكل رأس من الأغنام وخمسين ريالاً لكل رأس من الإبل (وزارة التخطيط ١٣٩٥ ، ص ١٨٦) .

(١٠) يبلغ عدد سكان المنطقة الشمالية ، والتي تتكون من مناطق حائل وتبوك والحدود الشمالية والجوف ، ١,٣٩٢,٥٩٢ نسمة وذلك حسب بيانات النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن بالمملكة لعام ١٤١٣ هـ . ويبلغ سكان منطقة حائل الإدارية لوحدها ٤١٤,٤١١ نسمة وذلك طبقاً لنفس التعداد (وزارة المالية والاقتصاد الوطني ، مصلحة الإحصاءات العامة ، بدون تاريخ ، ص ٤) .

(١١) تم الحصول على هذه النسبة المثوية بالتعرف على بيانات التعداد التي ذكرت أن عدد المساكن التي تتكون من خيمة أو بيت شعر في منطقة حائل بلغت ٨٣٠٢ مسكناً من مجموع ٦٦١٦٨ مسكناً حضرها التعداد (وزارة التخطيط ، مصلحة الإحصاءات العامة ، بدون تاريخ ، ص ٢٠٢) .

(١٢) تم حساب هذه النسبة بناء على بيانات النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن بالمملكة لعام ١٤١٣ هـ (وزارة المالية والاقتصاد الوطني ، مصلحة الإحصاءات العامة ، بدون تاريخ ، ص ٦) .

(١٣) ذكر لي هذا الأمر أكثر من فرد من أبناء المنطقة .

(١٤) تتطلب أهداف هذا البحث تقديم وصف مختصر للجغرافيا الطبيعية لمنطقة الدراسة . ويمكن للقارئ الذي يرغب في التعرف على تفاصيل أكثر عن هذه المنطقة الرجوع إلى بحث آخر لي عن نفس المنطقة وهو المشار إليه برقم (١١) في قائمة المراجع الخاصة بهذا البحث .

(١٥) تم الحصول على البيانات المتعلقة بالحياة التقليدية في منطقة الدراسة وتاريخها من الأفراد الذين تمت مقابلتهم لأجل تعبئة الاستبيانات الخاصة بالبحث وكذلك من أفراد آخرين من نفس المنطقة . وأود أن أوجه الانتباه إلى أن سبب اعتمادي

على هؤلاء الأفراد كمصدر شفوي لتاريخ المنطقة هو عدم توفر معلومات مكتوبة عن تاريخ المنطقة وحياتها التقليدية .

(١٦) من المحتمل أن هذه الوفيات حدثت كنتيجة لتعرض البدو المهاجرين لأمراض جديدة لم تتوفر لديهم مناعة ضدها مثل الملاريا والتي ترتبط ببيئات تكثر بها المياه .

(١٧) من مقابلة مع أحد أبناء المنطقة وهو عبيد بن عبيد بن ربيع الوهبي .

(١٨) ذكر لي أكثر من شخص واحد في منطقة الدراسة أن الشخص الذي أدخل سيارة لأول مرة في المنطقة هو ابن المنطقة جريد بن خشمان .

(١٩) تستطيع الجمال أن تبقى بدون ماء في فصل الأمطار وذلك تحت الظروف الاضطرارية لفترة تصل حتى ثلاثين يوماً . ولا نجد مثل هذه المقدرة عند الأغنام والتي تحتاج للشرب على فترات متقاربة يفصل بين كل منها يومين إلى أربعة أيام خلال أيام هذا الفصل . أما بالنسبة لفصل الصيف فإن الجمال تحتاج خلاله لشرب الماء مرة كل ثلاثة أيام وقد تطول هذه الفترة لتصل إلى مرة كل خمسة إلى سبعة أيام في حالة توفر نباتات غضة . وتحتاج الأغنام لشرب المياه مرة كل يوم خلال هذا الفصل . وقد يلجأ بعض البدو عند الضرورة بالإكتفاء بتقديم الماء للأغنام مرة كل يوم ونصف وذلك عند اتباعهم ما يسمى نظام «غب وعريجه» .

(٢٠) تم استخدام أعداد الجمال كمعيار لقياس درجة البداوة وذلك بسبب أن متطلبات هذا النوع من الحيوانات قد تفرض على الأسر التي تمتلكها نظاماً لاستخدام الموارد الرعوية يتطلب منها درجة أكبر من حياة الترحل . تابع أيضاً النقاش في الصفحة رقم ٣٧ من هذا البحث . وينفذ في هذا الصدد أيضاً التعرف على احتياجات الماء لدى كل من الأغنام والجمال وذلك بالرجوع إلى الهامش رقم (١٩) من هذه الصفحة .

ملحق

استبيان عن الأحوال العامة للبادية في منطقة التيسية

د . محمد عبدالكريم حبيب

قسم الجغرافيا - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الملك عبدالعزيز

تاريخ المقابلة :

ملاحظات عامة :

المنطقة :

الصفات الطبيعية لموقع المخيم :

موقع المقيم :

المسافة إلى أقرب مستوطنة :

القبيلة والفخذ :

عدد الخيام :

المنشآت المبنية التابعة للمخيم واستخداماتها :

عدد الأغنام والجمال التي أمكن حصرها حول المخيم :

عدد السيارات الموجودة حول المخيم وأنواعها :

ملاحظات أخرى :

١ - الحياة النباتية في المنطقة المحيطة بالمخيم :

٢ - ملاحظات أخرى عن منطقة المخيم :

مقابلة مع رأس أسرة بدوية واحدة :

(١) الاسم :

(٢) السن :

(٣) مستوى التعليم :

(٤) هل لك عمل آخر؟

- (٥) ما هي المنطقة التي كنت تأخذ إليها الحيوانات قديما ؟
(٦) أين كنت تقضي فصل القيظ قديما ؟
(٧) ما هي أسباب الانتقال من الموقع السابق للمراح ؟
(٨) منذ متى وأنت مقيم في هذا الموقع ؟
(٩) ما هي أسباب الانتقال من الموقع السابق ؟
(١٠) ما هي المسافة التي تأخذ إليها الحيوانات يوميا بعيدا عن المراح ؟
(١١) ما هي كمية الشعير التي تقدمها يوميا للحيوانات ؟
(١٢) من أين تحصل على مياه الشرب للحيوانات ؟
(١٣) ما هي المسافة من موقع السكن إلى الموقع الذي تأخذ منه الماء ؟
(١٤) كم عدد رؤوس الحيوانات التي كان يمتلكها الوالد (أو التي كنت تمتلكها قبل حوالي خمسين سنة) ؟

من الجمال :

من الضأن :

من الماعز :

(١٥) ما هو العدد الحالي للحيوانات التي تمتلكها ؟

من الجمال :

من الضأن (نجدى ونعيمي) :

من الماعز :

(١٦) ما هي عدد الرؤوس التي تم بيعها في العام الماضي ؟

(١٧) ما هي كمية وسعر السمن والزبدة والإقط التي بعته في العام الماضي ؟

(١٨) ما هي عدد الرؤوس التي فقدتها في العام الماضي بسبب أمراض الحيوانات ؟

(١٩) ما هو مجموع ما تم صرفه لشراء أدوية لعلاج الحيوانات ؟

(٢٠) ما هو عدد وأنواع السيارات التي تمتلكها ؟

(٢١) هل يذهب أي من أبنائك الذين هم في سن المدارس إلى المدارس

الحكومية ؟

(٢٢) هل تذهب لمراجعة الطبيب في المستوصف الحكومي ؟

- (٢٣) هل تستعين بخدمات الطبيب البيطري التابع لوزارة الزراعة الموجود في بلدة قبا أو في مدينة أخرى ؟
- (٢٤) هل يعمل أي من أبنائك في عمل حكومي أو في أعمال حرة ؟
- (٢٥) هل يساعدك أبنائك في العمل ؟
- (٢٦) هل لديك راع (أجنبي) مستأجر ؟
الجنسية والعدد :
- (٢٧) هل تذكر أعداد الحيوانات التي فقدتها في أوقات الجذب المعروفة (الوقوت) ؟
سنة الكسوف :
سنة عشيرة :
سنة حصاة قحطان :
سنة إشمائه :
- (٢٨) هل تعتقد أن المرعى ضعف الآن (قل النبات به) عن السابق ؟
- (٢٩) هل يمكنك تحديد الأنواع النباتية التي تعتقد أنها اختفت في الوقت الحالي ؟
- (٣٠) ماهي الأنواع النباتية التي أصبحت قليلة في الوقت الحالي ؟
- (٣١) هل حياتك كبدوي هي أفضل أم أسوأ في الوقت الحالي عما كانت عليه قبل حوالي خمسين سنة ؟
- (٣٢) حدد المشاكل التي تواجهها في عملك ؟
- (٣٣) هل لديك شيء تضيفه ؟

المراجع

أولاً : المراجع العربية

- الريد ، (١٩٦٥م) المراعى وإدارتها في المملكة العربية السعودية ، ترجمة حسن حمزة حجرة وهاشم عبدالمطلب مختار . إدارة استثمار الأراضي ، وزارة الزراعة والمياه .
- وزارة التخطيط (١٣٩٥هـ) . الخطة الخمسية الثانية . ١٣٩٥ - ١٤٠٠هـ / ١٩٧٥ - ١٩٨٠ .
- وزارة التخطيط ، (د . ت) . النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
- وزارة الشؤون البلدية والقروية (١٤٠٤هـ) . التقرير الفني رقم ٢ - المجلد الأول . الأوضاع الراهنة في منطقة حائل .
- وزارة المالية والاقتصاد الوطني ، مصلحة الإحصاءات العامة . (بدون تاريخ) . النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣هـ .

ثانياً : المراجع الأجنبية

- Abdallan, Suiiman, Al-Owainan, Ahmed S. and Hajooj, Abdullah (1990) *Economics of Nomadic Production in Northern Saudi Arabia*. Al-Jouf: Range and Animal Research Centre.
- Behnke, Jr. Roy H. (1980) *The Herders of Cyrenaica: Ecology, Ecology and Kinship among the Bedouin of Eastern Libya*. Illinois Studies in Anthropology, No. 12. Urbana: University of Illinois Press.
- Bouder, G. (1975) Pasture and Livestock in the Sahel. In pp. 29-34. *The Sahel: Ecological Approaches to Land Use*. MAB Technical Notes. No. Paris: UNESCO.
- Chatry, Dawn (1981) The Bedouin of Central Oman: Adaptation or Fossilisation. In Philip Carl Satzman (ed). pp. 13-32. *Contemporary Nomadic and Pastoral People: Asia and the North*. Department of Anthropology. College of William and Mary. Publication No. 18.
- Cheney, Michael (1958) *Big Oil Man of Arabia*. N.Y.: Ballantine Books.
- Cole, Donald Powell (1975) *Nomads of the Nomads*. Chicago: Aldine.
- Cordes, Rainer and Scholz, Fred (1980) *Bedouins. Wealth, and Change*. Tokyo: The United Nations University.
- Dickson, H.R.P. (1949) *The Arab of the Desert*. London: Allen and Unwin.
- Economides, S. (1987) *Establishment and Future Role of the Range and Animal Development Centre*. Al-Jouf: Range and Animal Research Centre.
- Finan, Tim. Al-Haratany, Eisa, al-Eisa, Abdulaziz, Amin, Khalid, Miriki, Siraj and Habib, Mohamed (1995) *Impacts of Modernization on Saudi Arabian Bedouin Groups: An Anthropological Study*. A Report Submitted to the Hezfi Establishment for Trading, Environmental Support of Nomads (ESON) Project.
- Gefu, Jerome O. and Gilles, Jere L. (1990) Pastoralists, Ranchers and the State in Nigeria and North America: A Comparative Analysis. *Nomadic Peoples*. Number 25-27, pp. 34-50.

- Habib, Mohammad Abdul-Kareim (1995) *A Survey of the Economic Resources and the Socio-Economic Conditions of the Nomadic Population in Al-Taysiyah Area: Hail Governorate*. A Report Submitted to the Environmental Protection General Directorate, Meteorology and Environmental Administration, Jeddah, Saudi Arabia.
- Heady, Harold F. (1972) Ecological Consequences of Bedouin Settlement in Saudi Arabia. In M. Taghi Farvar and John P. Milton, (eds), pp. 683-930. *The Careless Technology: Ecology and International Development*. Garden City, N.Y.: The Natural History Press.
- Johnson, Douglas L. (1993) Nomadism and Desertification in Africa and the Middle East. *JeoJournal*, 31(1): 51-66.
- (1969) *The Nature of Nomadism*. The University of Chicago, Department of Geography, Research Paper No. 118. Chicago: The University of Chicago Press.
- Khogali, Mustafa Mohammed (1981) Sedentarization of the Nomads: Sudan. In John G. Galaty, Dan Aronson, Philip Carl Salzman and Amy Couinards, (eds), pp. 302-317. *The Future of Pastoral Peoples*. Ottawa: International Development Research Centre.
- Monod, Theodore and Toupet, Charles (1961) Land Use in the Sahara-Sahel Region. In Dudley Stamp, (ed), E. (1977) Tribes and Politics in Eastern Arabia. *The Middle East Journal*, 31(3): 297-312.
- Salzman, Philip Carl (1981) (ed). *Contemporary Nomadic and Pastoral People: Asia and the North*. Department of Anthropology, College of William and Mary. Publication No. 18.
- Spooner, Brian (1973) *The Cultural Ecology of Pastoral Nomads*. An Addison-Wesley module in anthropology. No. 45.
- Sweet, Louise E. (1969) Camel Pastoralism in North Arabia and the Animal Camping Unit. In Andrew P. Vayda (ed), pp. 157-80. *Environment and Cultural Behavior*. Garden City, N.Y.: The Natural History Press. Originally appeared in: A. Leeds and A.P. Vayda, (1962) (eds), pp. 129-52. *Man, Culture and Animals*. The American Association for the Advancement of Science. Publication No. 78.
- UNESCO (1977) *Development of Arid and Semi-Arid Lands: Obstacles and Prospects*. MAB Technical Notes. No. 6.

The Rise of Semi-Sedentary Mode of Life in Al-Taysiyah Area, Hail Governorate: A Study in Economic Geography of Changes in Natural Resources Use and System of Seasonal Movement in Pastoral Nomadism

MOHAMMAD ABDUL-KAREIM HABIB

Department of Geography, King Abdulaziz University

ABSTRACT. Pastoral nomadism has universally experienced radical changes since the start of this century. These changes occurred as a result of certain economic and social transformations within the countries inhabited by groups of pastoral nomads. This transformation took place in the case of Saudi Arabia as a result of the rise of a modern state and the discovery of oil. Both of these factors have directly and indirectly affected the economic and social life of the pastoral nomads, the Bedouins, in the country in general. And this effect was accentuated by the drought which afflicted the pastoral economy of the country in the early years of the 1950's. These factors led many Bedouins either to sedentarize or to take jobs in non-pastoral nomadic activities. This second alternative has necessitated a series of changes which finally led many Bedouins to revert to a semi-sedentary mode of life.

The author endeavored in this paper to analyze the causes and processes as well as the ramifications of the change to a semi-sedentary mode of life. This analysis has been done on the national level of Saudi Arabia in general and then on the local scale of al-Taysiyah area in Hail Governorate, in particular. The human and environmental basis for pastoral nomadism has been discussed in detail as a framework for this analysis. This discussion has also been employed by the author to provide an understanding of the factors which contributed to the success of pastoral nomadism in the past and the success potentials of semi-sedentary mode of life at the present time. The author has provided at the end of this paper an investigation of the economic, environmental and social impact of semi-sedentary mode of life in the study area.

